٢٥

عُلماء ومُفكّرون مُعاصِرون

لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم

عبد الله التليدي

العلّامة المُربّي والمُحدّث الأثريّ

تأليف

الحسين الشبوكي

دار القلم

دمشق

٢٥

علماء ومفكرون معاصرون

لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم

عبد الله التليدي

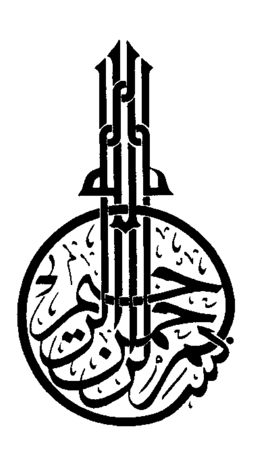
العلامة المربي والمحدث الأثري

تأليف

الحسين اشبوكي

دار القلم

دمشق



الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

المقــدّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد وآله وصحبه .

وبعد : فقد طلب مني الأخ الكريم السيد المفضال الأستاذ محمد علي دولة أن أُحرِّر كتيِّباً حول حياة شيخنا أبي الفتوح سيِّدي عبد الله ابن عبد القادر التَّليدي حفظه الله ، وأن أخصَّ بالذكر مؤلَّفاته وكتبه سواء التي رأت نور الطباعة ، أو التي لم يكتب لها الظهور بعد .

والكتابة عن حياة شيخنا صارت من جملة اهتماماتي ، إذْ ما زلت أُحرِّر في ذلك كراريس جديدة في كتاب سميته ، من كثرة ما يُؤْنسني في وحدتي بين الكتب والمراجع ، (أنيس دربي من سيرة الشريف والمحدِّث المربِّي) ، استعرضتُ فيه بالتفصيل الحياة الروحيَّة لشيخنا ، مع بيان كفايته العلمية ، ومنزلته الدَّعَوية حسبما توفّر لي من معلومات عزيزة نادرة عن حياته الشخصية . . كما بيَّنت طريق المعرفة التي سلكها حتى بلغ ما بلغ إليه من إلمام ممتاز بالحديث النبوي وعلومه ، فصار مختصّاً بهذا العلم الشريف من بين كثير من علماء المشرق والمغرب .

وتعمَّدتُ في هذا الكُتيِّب أن لا أمرَّ بوصف للكُتُب التليدية دون أن أستنطق أهميتها ، وما يمكن أن يُثار من خلال قراءتها من فوائد وعلوم وآثار .

واعتنيتُ في هذه الرسالة بالحياة الأثرية لشيخنا سيدي عبد الله التليدي ، لما لهذا الوصف من أثر طيِّب في نفس شيخنا الذي لا يحب أن

تُنسب اجتهاداته إلى مذهب من المذاهب، ما دامت طريقته في البحث تأخذ بالأثر والدليل دون رأي الرجال.

إنها بالفعل حياة أثرية، تلك التي عرفها شيخنا، خاصة بعدما تعرَّف على رُوَّاد المدرسة الصِّدِّيقية، وخصوصاً السيد الحافظ سيدي أحمد ابن الصدِّيق رحمه الله تعالى.

فمن المهمَّات التي ينبغي تذكُّرها وذكرها في معرض سردنا لحياة شيخنا حفظه الله مسألة تأثّره بعلوم النقل والأثر أكثر من أخذه في علوم العقل والاستنباط.

فالشيخ لا يُحبِّذ كثرة الردِّ والسؤال في قضايا الفقه ونوازله وتفاصيله المتشعِّبة، وتراه كثيراً ما ينتابه القلق عند إكثار أحد الطلبة عليه في مسألة فقهية اجتهادية تباعدت من خلالها أفهام الرجال في الحكم على الشيء بالإباحة أو التحريم أو غير ذلك. ويزداد قلقه حين يحس من السائل محاولةً للغَوْص في عِلَل الأحكام الشرعية؛ إذ يعتبر ذلك فضولاً لا طائل تحته ما دام لم يرد من جهة الشرع ما يثبت للحكم علَّةً واضحةً جليَّة. **ويشتد القلق التَّليدي إذا ما عارض السائل نصّاً من نصوص الكتاب والسنة باجتهاد يقابله مقابلة الندِّ للندِّ أو الرأي لضده ومخالفه.**

ومن الأمور التي تشهد لمدى تأثُّر شيخنا حفظه الله بالمأثورات دون القضايا العقلية البحتة وصاياه المتعدِّدة لطلبته وتلامذته بعدم تضييع الوقت في دراسة المنطق سنين طويلة، قد تعود عليهم بالنفع إن هم اشتغلوا بالأهمّ من ذلك، **والذي يراه حفظه الله تعالى هو دراسة علوم الحديث رواية ودراية مع الاعتناء بفقهه وممارسة علوم القرآن والتفسير.**

وحين زرتُ مع شيخنا الأستاذَ الكبير العالم المفكِّر المفسِّر سيدي عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني، رفقة الشيخ الجليل سيدي مَجْد

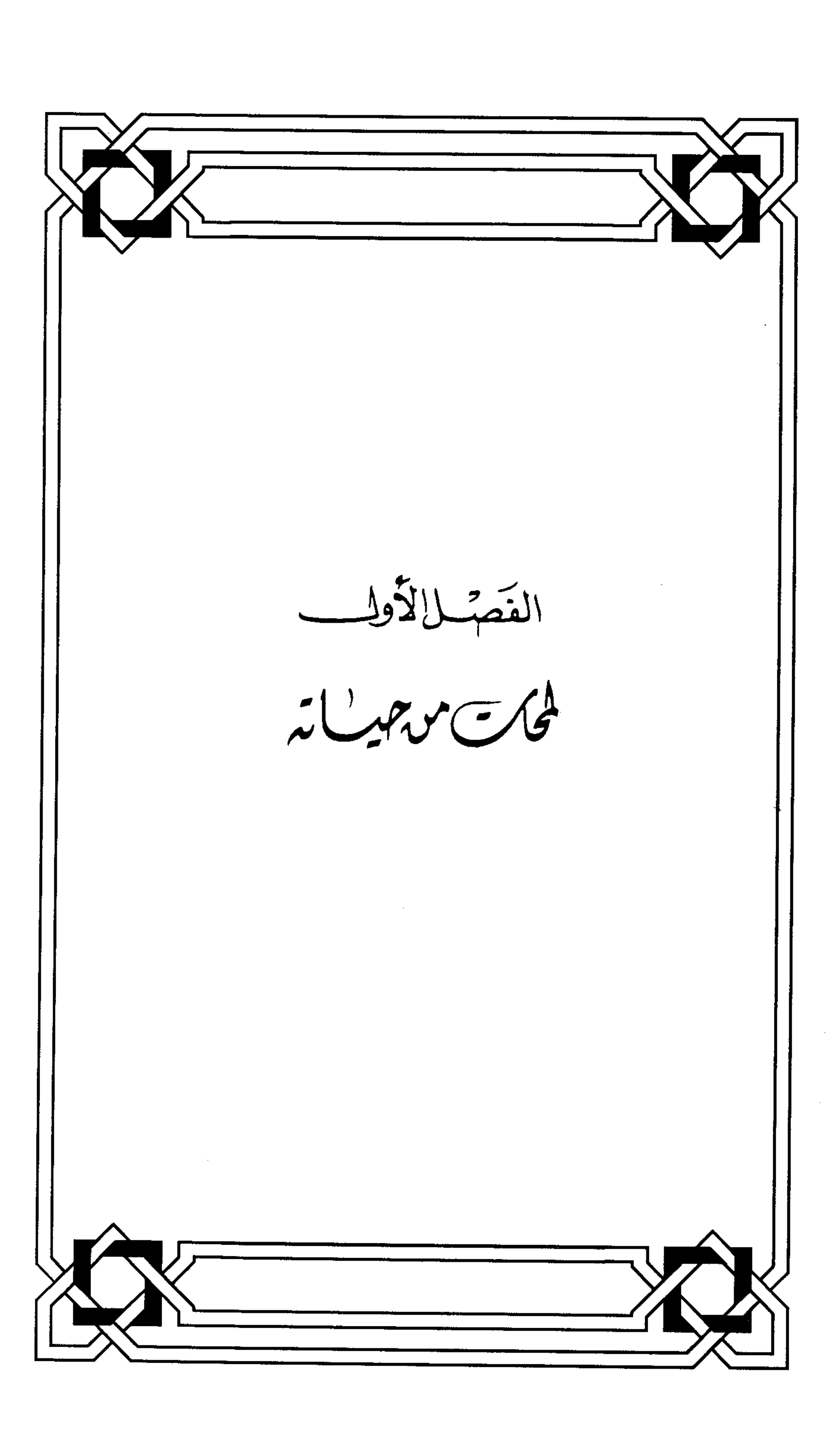
مكي، والدكتور المقتدر سيدي قاسم سعد، في اليوم الثاني من عيد الفطر عام ١٤٢٣هجرية، وقفتُ حامداً الربَّ جلَّ جلاله على أن رزقني في ساعة من ساعات حياتي صحبة عَلَمَيْن عظيمَيْن يمثِّل أحدهما مدرسة الأثر والنقل، ويمثّل الآخر مدرسة الفكر والعقل.

إنَّ حكمة الله عزَّ وجل بالغة إذ هيَّأ سبحانه لكل خندق من خنادق المعرفة والعلم رجلاً صادقاً ووفياً يقوم عليه على وجه تام من الاختصاص والتفنُّن، حتى تبقى مسيرة العلم وسلسلته الربَّانية المحمّدية خالدة أبد الدهر.

طنجة بتاريخ ١٦ شوال ١٤٢٣هـ
الموافق ٢٠/ ١١/ ٢٠٠٢م

وكتب الفقير إلى رحمة الله وعفوه
الحسين اشبوكي الطنجي





الفصل الأول

لمحات من حياته



الفصل الأول

لمحات من حياته

١ ـ النسب الإدريسي العَلَوي الشريف:

بما أنَّ النسب من الأمور التي يُستشفُّ من خلالها شرف الإنسان ووضعه من بين سلالات البشر، ارتأيت أن أبدأ به هذه الترجمة مستعيناً بالله وحده فأقول:

هو الفقير إلى ربّه: أبو الفتوح عبد الله بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد السلام التليدي، يتَّصل نسبه بجدِّ أولاد التليدي سليمان بن محمد بن علي بن عيسى بن موسى بن إسماعيل بن حمزة بن عبد الله بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن سيدي نابت بن مهدي ابن خالد بن عمران بن صفوان بن يزيد بن خالد بن سيدي عبد الله بن مولانا إدريس دفين فاس بن مولانا إدريس فاتح المغرب بن مولانا عبد الله الكامل بن مولانا الحسن المثنّى بن مولانا الحسن السبط بن الإمام **علي** ومولاتنا **فاطمة الزهراء بنت سيد المرسلين** ﷺ.

قال الشيخ حفظه الله في كتابه (حياة الشيخ سيدي أحمد بن الصِّدِّيق) بعد ذكره لنسبه:

هكذا رفع نسب أولاد التليدي العلاّمةُ ابن الحوَّات نقيب الأشراف في تقييده المشهور، وهو الذي بأيدي أولاد التليدي وفي شجرتنا، وقد غلط من تكلَّم فيهم بالظن والتخمين، كصاحب (ممتع الأسماع) في

ترجمة العارف سيدي يوسف بن الحسن التليدي ومن تبعه من بعض المعاصرين[١].

ويلاحظ أنَّ الشرفاء التليديين مَدِينون لشيخنا سيدي عبد الله بالاحترام والتقدير، إذ كان السبب في اشتهار اسم التليدي من جديد على مستوى العالم الإسلامي نسباً نبوياً شريفاً.

فبعد سيدي يوسف التليدي لا نكاد نجد أحداً من هذه الشجرة الطيبة مسطوراً في كتب التراجم والتاريخ، وإن كان فيهم العديد من الصالحين والعلماء[٢] ورجال التربية الصوفية.

وفي سنة ١٤١٦ هجرية يبرز اسم جديد للتليديين، ينبثق من دوحة أسرة شيخنا سيدي عبد الله، فيصدر عن دار البشائر الإسلامية كتاب لنجله الأكبر العالم القدوة والباحث الألمعي سيدي محمد[٣] بن عبد الله التليدي سماه: (تراث المغاربة في الحديث النبوي وعلومه).

---

(١) حياة الشيخ سيدي أحمد بن الصديق، لشيخنا سيدي عبد الله التليدي، ص١١٤.

(٢) إلا ما كان من سيدي بن يامون التليدي، الشاوني مولداً ونشأةً، والتطواني مستقراً ووفاة، صاحب المنظومة في النكاح التي شرحها سيدي عبد الصمد كنون رحم الله الجميع.. وهو حسب ظني غير مشهور على مستوى العالم الإسلامي.

(٣) ولد في شهر الربيع النبوي عام ١٣٨٥ هجرية الموافق لسنة ١٩٦٥ بتاريخ النصارى. حَفِظَ القرآن الكريم على سيدي محمد بن عليلو، وسيدي عبد الكريم الأنجري، وسيدي عبد الرحمن المغوغي، في آخرين.. وقرأ على أبيه علوم العربية ورسالة ابن أبي زيد بالإضافة إلى علوم المصطلح والبلاغة والسيرة والأصول، وسمع عليه صحيح البخاري، وصحيح مسلم، كما حضر سيدي محمد مجالس سيدي عبد الله بن الصديق في نيل الأوطار. له أبحاث مهمة في علم التراجم والتاريخ والحديث.

ويعدُّ هذا المؤلَّف من الأبحاث العلمية التي نالت إعجاب عدد من المحققين، كالشيخ محمد عوامة، والدكتور عبد السلام الهرَّاس، حفظهما الله تعالى، والدكتور سيدي إبراهيم بن الصديق رحمه الله، الذين نوَّهوا بالجهد المضني، والبحث المتتابع في المعاجم والمكتبات حول موضوع شغل بالَ بعض الباحثين في العصر الحديث.

وفي الإهداء يقول سيدي محمد حفظه الله: «إلى.. العقل العالم، الذي تلقَّيت عنه العلم.. والإنسان المؤمن، الذي رعاني.. إليك: والدي.. أهدي هذا الرمز.. وقد عشت معك بين الكتب سنوات، وسنوات.. عرفتك شغوفاً بالحديث النبوي، خادماً له.. فلتقرّ عيناك بهذا العمل.. ولعلك تخصّني بدعوة صالحة تنفعني.. ابنك محمد».

ويقول رسول الرحمة سيدنا محمد ﷺ فيما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه:

«إذا مات الإنسانُ انقطعَ عملُه إلاّ من ثلاث: إلاّ من صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ يُنتفَعُ به أو ولدٍ صالحٍ يدعو له»(١).

إنها سلسلة نورانية خالدة، تصل إلى الحبيب المصطفى ﷺ، شيخاً عن شيخ، وعارفاً عن عارف، ومحدِّثاً عن مُحدِّث، وشريفاً عن شريف.. وما زال الله يغرس غرسه المبارك، جعلنا الله من نواته وثمره آمين.

بارك الله في عمر شيخنا، وفي مدة ملازمتنا له، ومتِّعه اللهمَّ بسمعه وبصره وقوته ما أحييته، واجعل اللهمَّ هذا التمتيع هو الوارث منه، يا أرحم الراحمين.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم ٣٠٨٤ في كتاب الوصية.

٢ ـ ولادته حفظه الله تعالى:

ولد شيخنا سيدي عبد الله بقرية الصَّاف[١] من قبيلة بني كِرْفط عمالة تطوان سنة ست أو سبع وأربعين وثلاثمئة وألف.

وبعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى، بدأت تداعياتها في المستعمرات، فكان المغرب من جملة الدول المستهدفة من طرف الفرنسيين والإسبان.

فبعد هذه الحرب الضَّروس كان الاستعمار قد تغلغل في مجمل تراب إفريقية، وأصبحت معظم البلاد الإفريقية، باستثناء ليبيرية وإثيوبية، محكومة مباشرة من طرف القوى الاستعمارية الأوروبية أو تحت حمايتها، كما هو الشأن بالنسبة لمغربنا، من طرف فرنسة، ومصر الشقيقة من طرف بريطانية.

نشأ الشيخ في زمن المقاومة والجهاد بعدما احتلّ الإسبان بعض الشواطئ المغربية في الشمال، واتفاق معظم القبائل الشمالية على قتال الكفرة المستعمرين.

٣ ـ والده رحمه الله تعالى:

كان والد الشيخ رحمه الله تعالى في طليعة هذه الحركة الجهادية المباركة، إذ لم يرضَ بالاستسلام والخنوع كغيره من الخَوَنة والجبناء

---

(١) قبيلة بني كرفط تحد شرقاً بقبيلة بني عروس وقبيلة صماتة، وغرباً بقبيلة الخلوط والساحل، وجنوباً بقبيلة أهل سريف، وشمالاً ببني عروس، وكان عمالتها في القديم مدينة العرائش ودائرتها سبت بني كرفط.. وبقيت القبيلة خمسة عشر عاماً صامدة ومجاهدة دون أن يتمكّن العدو الإسباني من احتلالها.. حتى حدثت الخيانة من عملاء الاحتلال، فسقطت كغيرها من مناطق المغرب في يد الاستعمار.

رغم قوة العدو وجبروته.

ظلَّ والده رحمة الله عليه في الجبال المحيطة بمدشر[1] بني كرفط رافضاً الإذعان وتسليم السلاح، بينما كان الخائن (عبد القادر أفلاذ) قد عمل للإسبان الذين ما فتئوا أن عيّنوه قائداً على تلك المنطقة.

وبخيانةٍ من أحد أقربائه سقط سيدي عبد القادر التليدي في يد المستعمر، وأدخله الطاغية (أفلاذ) السجن ليمارس عليه حيله البشعة وتهديداته.. فعرض عليه النجاة من الحبس إن كتب له أرضاً باسمه كانت تدعى (الهداوية)، وهي أرض واسعة كان يمتلكها والد الشيخ كابراً عن كابر،.. واشترط المغتصب أن تكون الكتابة عدلية.

خرج سيدي عبد القادر التليدي من السجن مُؤْثراً كرامته على الدنيا الفانية، ومكتفياً بما كان يمتلكه من أرض أخرى صغيرة وماشية...

إلا أن المجاعة قد حطَّت رحالها في المنطقة، فاضطرّ لبيع ما كان يمتلكه للهروب بعائلته من الفقر والفاقة.

كانت تلك هي ظروف الأيام الأولى التي عاشها الشيخ سيدي عبد الله وسط أسرته وهو ما زال رضيعاً.. ظروف الحرب والمجاعة والمطاردة.

وتلك سنّة الله في عباده.. فقد يُخرج ـ عزَّت قدرته ـ من وسط الجهالة والفقر رجلاً عالماً يفوق علمه علم من أتيحت له الظروف، وتيسَّرت له المسالك المادية والمعنوية لتكوين عميق وأصيل.

٤ ـ نشأة شيخنا حفظه الله تعالى:

هاجر سيدي عبد القادر التليدي مع باقي الأسرة إلى طنجة[2]

---

(١) ويقال أيضاً دشار، والمدشر أشهر.

(٢) قال شيخنا سيدي عبد الله في نصب الموائد ٢/ ١٠٤: «من المدن المغربية=

الهجرة الأولى بتستّر من رجال الحدود، فبقي بها مدة سنتين تردد في السنة الأولى صغيره سيدي عبد الله الذي بلغ من العمر خمس سنوات إلى المكتب القرآني، لكن دون أن يتعلّم شيئاً ولا حرفاً واحداً، إذ لقيَ إهمالاً من قِبَل المدرس المكلَّف بتحفيظه القرآن كعادة ينهجها المحفظون تجاه الطلبة الجدد، وهي عادة سيئة تؤثر سلباً على تكوين الطالب وتعليمه.

كانت هذه المرحلة من حياة الشيخ زمن الحرب العالمية الثانية في

= القديمة مدينة طنجة، فهي أقدم مدنه على الإطلاق كمدينة سبتة إذ يرجع تاريخ تأسيسها إلى ما بعد سيدنا نوح عليه السلام بزمن قريب، حيث إن أول من سكن هذه السواحل حفدة يافث بن نوح الذين كان منهم الإخوة الثلاثة: أندلس وسبت وطنج، وكان هذا الأخير هو المؤسس لهذه المدينة وبه سمّيت، ومع ممر العصور والأجيال أصبحت المدينة ذات عمران واسعة الأرجاء وتداولتها الأمم حتى جاء الرومان فاتخذوها عاصمة للمغرب ودار مملكتهم، وكانت عمالتها كما يقول المؤرخون: مسيرة شهر في مثله، وكانوا يطلقون عليها اسم طنجس. وجاء الإسلام وهي تحت النفوذ الروماني وسيطرته، ففتحها القائد الإسلامي العظيم موسى بن نصير بعد معارك طاحنة دامية، كما كان فتح في ذلك العصر تطوان وسبتة: وجعل مولاه طارق بن زياد عاملاً عليها، وقائماً بشؤون أهلها، ولما دخلها الإسلام أصبحت قاعدة المغرب أيضاً، فقد قال صاحب (جذوة الاقتباس): وسار إدريس ومولاه راشد حتى نزلا مدينة طنجة الخضراء، وهي يومئذ قاعدة المغرب، يعني عاصمته. وقال ابن غازي في (تكميل التقييد): طنجة كانت قاعدة المغرب زمن الإمام مالك وابن القاسم. وأصبحت بحمد الله تعالى دار الإسلام، وتداولتها الدول الإسلامية وملوكها عبر التاريخ، فكانت تحت حكم الأمويين والأدارسة، والعبيديين والمغراويين، واللمتونيين والموحدين، والمرينيين والسعديين، ثم العلويين الحاليين، وهي تحت حكمهم وإشرافهم منذ ثلاثة قرون ونيف وستين سنة لتاريخه الحالي، واستعمرت من طرف الكفار مراراً؛ فقد استعمرها البرتغال، ثم الإنكليز، ثم فرنسة، ثم إسبانية، وكانت لعهد قريب قبل استقلال المغرب دولية». اهـ.

الأربعينيات من القرن الماضي، وما زالت ذاكرته تستعيد صور طائرة ألمانية من غير جناحين، كانت تحلّق فوق الأجواء الشمالية من المغرب، كما كان يسمع دويَّ القنابل والصواريخ وهو منهمك في حفظه لكتاب الله عزَّ وجلّ.

عاد سيدي عبد القادر من جديد إلى قرية الصاف، ليهاجر ثانية بابنه عبد الله مع باقي الأسرة إلى مدينة طنجة، وسِنُّ شيخنا دون العشرة، فإذا برجال الحدود يلقون القبض على والد الشيخ مطالبين إياه ببيان هويته، فبقي مسجوناً إلى أن تعرَّف عليه أحد شيوخ المنطقة ومقدّميها.

لم يكن شيخنا قد ختم إلا سلكة واحدة، وهذا ما يسمِّيه أهل القرآن في المغرب بالسور، فكلما ازدادت سور التلميذ ازدادت محفوظاته.

فكان محل سكنى العائلة أولاً بحي بوقْنادل، ثم انتقل والده إلى حي مُسْتَرخُوش، ثم رحلوا إلى الدرادب، وسكنوا بحومة سيدي قاسم.. ما ذلك إلا لضيق العيش آنذاك، وصعوبة وجود مأوى مناسب لمجموع الأسرة.

وتردَّد شيخنا في هذه الفترة إلى الشيخ سيدي الراضي المُصوَّري في حي الدرادب ليحفظ القرآن الكريم في محل هو الآن مخرّب قبيل مسجد الموحّدين.. كما تتلمذ أيضاً في مسجد صغير بحي مسترخوش، ما زال إلى اليوم تقام فيه الصلوات، بالقرب من الملجأ الخيري.

وكان على أبيه أن يرسله بعد ذلك بسنوات إلى قرية الصاف لحفظ كتاب الله على المقرئ عبد السلام بن حمان الشقاف، والمقرئ عبد السلام بن عزّوز(١)، فنزل عند سيدي عمر التليدي، عم والده، مدة

---

(١) توفي كل من المقرئَيْن المرحومَيْن، داخل العقد الأول من القرن الخامس عشر الهجري.

سنتين حتى ختم حفظه للقرآن الكريم.

كما قرأ في فترة أخرى على فقيه من بني كرفط يدعى سيدي أحمد حليمة أمسناو، لكنه لم يلبث أن توفي الفقيه رحمه الله.

ختم الشيخ بعد ذلك القرآن تصحيحاً على جماعة من المقرئين، فكان ينتقل من مدشر إلى مدشر عملاً بما يسمى عند طلبة القرآن في المغرب: بالتَّخْنِيْشَة، وهي ملازمة المساجد النائية عن محل سكنى العائلة للاستزادة من قراءة القرآن الكريم وختمه حفظاً على الطريقة المغربية ختمات متوالية، وهي ـ أي التخنيشة ـ لا تبدأ اصطلاحاً إلا بعد الختمة القرآنية الأولى.

فزار شيخنا دار الخيل في بني عروس، وتتلمذ على المقرئ الفاضل عبد السلام الخنوس، الذي لا يزال على قيد الحياة في مدينة طنجة في سنّ تزيد على المئة سنة، و(خنّش) بمدشر لهرا في سبت بني كرفط، على فقيه يقال له: الأعرج، وفي الأخماس السفلية بمدشر أمغري، على الفقيه عبد السلام الغزاوي، وقرأ بالغربية بمدشر أولاد عبو على فقيه يدري، وفي بني حسان بمدشر عزاوَر على الفقيه بنعزوز الحمزاوي.

فبلغ عدد ختمات حفظه للقرآن الكريم حوالي سبعة إلى ثمانية ختمات مباركات.

كما أنه ـ حفظه الله ـ خنَّشَ في وقتٍ لاحق، بأولاد زيّان، قرب جبل حبيب قريباً من الفحص، مدة ستة أشهر، ختم فيها ختمة واحدة من القرآن الكريم.

ويلاحظ أن مؤشر التخنيشة في المغرب بدأ في عدِّه التنازلي بعدما قلَّ الدعم المادي لطلبة القرآن من طرف طبقات الشعب المختلفة من جهة، ومن طرف مؤسَّسات الدولة المكلّفة بهذا الجانب من جهة أخرى.

٥ ـ حياة قاسية:

ولا يفوتنا التنبيه إلى أن الأيام الأولى من حياة الشيخ كانت صعبة للغاية، عانى فيها تعذيب المقرئين من ضرب بقضيب الرمان، فيما يسمّى بين الأوساط الطلابية بالتحميلة، إلى المد والضرب على الظهر لمجرّد ارتكاب أخطاء يسيرة شأن كلّ صبي غير مكلَّف.

ولما كان شيخنا يحفظ القرآن الكريم في مدينة طنجة كان كثيراً ما يهرب من الكتّاب بسبب الضرب المتكرّر والقاسي الذي لحقه من المدرسين.. حتى إنه ترك الكتّاب ثلاثة أشهر عازماً على أن لا يرجع إليه أبداً.

ولقد سامح شيخنا كلّ مقرئ انهال عليه بالضرب بغير حق أو بدون أيِّ موجب شرعي.. يكفي أنه أخذ عنهم القرآن الكريم وحفظه من صدورهم رحمهم الله جميعاً...

فمثلهم كما قال لي الشيخ ـ جزاه الله خيراً ـ مثل الوالد مع ولده، وإنْ ضربه وأهانه فالمحبة بينهما ثابتة قائمة.

ولكن الحق أحق أن يُقال: إنَّ ما يفعله بعض المقرئين مع تلامذتهم مُشين بالمدارس الإسلامية، ومشوّه لطلعة ديننا الحنيف، وليس من منهاج النبوة في شيء.

٦ ـ استفحال الفقر وندرة الطعام:

يجد الطالب نفسه مجبراً إن هو طلب حفظ القرآن الكريم في مدشر غير مدشره أن يمدّ يده للسؤال، خصوصاً إذا كان الفقر قد استفحل في الناس وأمسى الطعام بينهم عزيزاً.

فإذا كان أهالي المنطقة على وعيٍ تامٍّ بضرورة مساعدة حَمَلة كتابهم

المقدَّس (القرآن) فإنهم سيتسابقون إلى الخير، ويتنافسون فيه إكراماً لمن حفظ لهم القرآن الكريم من الضياع والتلف.

لكن الناس في ذلك متفاوتون، بل ومنهم من يُحْرم بركة القرآن، فلا يوفق لهذا العمل الجليل رغم ما أُوتيه من مالٍ كثير.

ويحكي شيخنا حفظه الله عن مثالٍ عايشه في البخل والبخلاء، حينما كان يصحِّح القرآن الكريم في أحد المداشر.

فبينما هو يسير ليلاً، قد أخذ الجوع بمجامع بطنه، إذا هو ببستان لأحد الأثرياء يغصّ بأشجار التين، فعمد شيخنا إلى واحدة منها فأكل منها وأخذ لأصحابه من الطلبة الجياع أيضاً، لكن لسوء الحظ رآه صاحب البستان الذي على التوّ عدا ليقتله؛ ففرَّ منه شيخنا واختفى، محتمياً بأستاذه الذي نافح عنه، وبيَّن عذره لصاحب الشجرة البخيل.

إلا أنَّ الفلاح الغليظ أقام الدنيا وأقعدها، وأقسم إن لم يُطرَد شيخنا من قريتهم ليشعلنّها ناراً في أهالي القرية، فما كان إلا أن خرج سيدي عبد الله منها فارّاً من قساوة الحياة وفظاظة أهلها.

٧ ـ تقلُّبه في الحِرَف والصناعات:

ثم انقطع شيخنا عن القراءة، وتقلَّب في عدة حِرَف ومِهَن وصناعات، فكان خبَّازاً ونجّاراً وصيَّاداً في البحر، وحطاباً للأعواد، ومساعداً للبناء، وخياطاً للخفاف والطرابيش والأقمصة الشتوية، بالإضافة إلى رعاية المعز والبقر في حال صغره، وذلك في الفترة ما بين عشر سنوات إلى عشرين سنة من عمره.

٨ ـ ظروف عصيبة:

ومرّت عليه ـ حفظه الله ـ ظروف قاسية مدة ست سنوات أيام الحرب

العالمية الثانية، إذ تزامنت مع المجاعة الثانية التي أصابت المغرب آنذاك والفقر المدقع وعدم القدرة على الفلاحة. . وأصيب ببلايا ومحن، حتى إنه كان لا يأكل إلا (يَرْنا أو البقول) لوحده، يكتفي به عن الطعام المفقود.

بل إنَّ شيخنا حفظه الله كثيراً ما يحكي عن رحلاته وتنقلاته على الأقدام من قبيلة إلى أخرى، ومن مدشر إلى آخر، فيبقى في الرحلة الواحدة يوماً أو يومين بدون مأكل ولا مأوى، أو في مهرب من اللصوص وقطَّاع الطرق.

حتى إنه مرة وقع في يد لصّيْن مُسَلَّحَيْن أرادا أن يسلباه جلاَّبته الوحيدة التي كان يملكها، فتأخَّر شيخنا كأنه يريد انتزاع جلابته، ثم فرَّ في سرعة جنونية وبدون توقُّف، حتى نجا من متابعتهما له.

فمن كان يظن أنَّ الشابَّ التليدي في ظلّ هذه الظروف العصيبة سيصبح فيما بعد من أجلِّ العلماء في وقتنا الحاضر؟! فسبحان الله القادر ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

٩ ـ طلبه العلم:

ثمَّ هداه الله تعالى للاشتغال بالعلم، فشرع في طلبه، وقد ناهز العشرين من عمره في (مدشر مجازلين) بالقرب من ضريح سيدي أبي حرمة أحد أجداد العارف الواصل مولاي عبد السلام بن مشيش رحمهما الله تعالى.

فالتحق هناك بالفقيه سيدي ابن عايشة رحمه الله، وهو أول عالم يدرس عليه الشيخ بعد حفظه للقرآن الكريم، فكان يدرس عليه متن ابن عاشر في الفقه، ومتني الآجرُّومية والألفية في النحو، مع حفظ هذه المتون على اللوح.

١٠ ـ تهمة خطيرة:

لكن اقتضَت الأقدار الإلـٰهية أن يغادر شيخنا هذه المدرسة دون إتمام ما بدأه مع سيدي ابن عايشة رحمه الله من دروس، بسبب تهمة خطيرة نُسبت إليه وهو منها براء براءَةَ الذئب من دم يوسف: تهمة التآمر والسرقة أعاذنا الله منها.

فبينما الشيخ يصلّي في المسجد إذ بأحد زملائه ينادي عليه أن: أدرك محلّ نومك فقد وجدته مفتوحاً، ذهب الشيخ إلى بيته المشترك بينه وبين طلاب آخرين ليجد الباب مفتوحاً، وكتابه الذي به نقوده مسروقاً بالإضافة إلى بعض أمتعة الطلاب.

ذاع الخبر في المدشر ليعقد الفقيه سيدي ابن عايشة مجلساً للمحاكمة اتّهم فيه الشاب التليدي بالتآمر مع أحد أصدقائه لسرقة المحل بما فيها نقوده حتى لا يُحاط بالشك والريبة!.

خرج الشابّ التليدي من (مدشر مجازلين) بعد التهديد والوعيد مطروداً في ليلٍ مظلم، مقتحماً غابة كثيفة تصل إلى (مدشر بني كرفط)، ليجد الخير بعد هذه التجربة الخطيرة في مدينة طنجة، التي عاشت فترة غنية بالفقهاء والمدرّسين والعلماء والمربّين.

ورغم ما حدث للطالب التليدي الشابّ من همٍّ وغمٍّ بسبب هذه الحادثة المثبطة، فإن عزمه لم يقلّ عما كان عليه، بل زاد تشوُّقه للطلب والاستزادة منه عاماً بعد عام.

١١ ـ التحاقه بالمعهد الديني بطنجة، وأشهر شيوخه:

وفي سنة ١٩٤٧م التحق سيدي عبد الله بالمعهد الديني بالمسجد الأعظم[١] في طنجة الذي كان يديره العلاّمة سيدي عبد الله كنُّون مع ثُلَّة

(١) ويسمى أيضاً بالجامع الكبير، وهي التسمية المشهورة لهذا المسجد بين أبناء=

من خيرة علماء تلك الفترة، كالفقيه سيدي عبد الحفيظ كنُّون، والفقيه سيدي محمد الساحلي الوسيني، والشيخ سيدي عبد السلام أبارغ، والفقيه سيدي عبد الله بن عبد الصادق التَمْسَماني، والفقيه سيدي الحسن اللَّمْتوني، في غيرهم ممن كانت تفتخر بهم عروس الشمال المغربي.

كان هذا المعهد يتكوَّن من مستويين: ابتدائي وثانوي، يدرس

= المدينة.. بُني على عهد السلطان العالم سليمان، وبأمر منه في سنة ١٢٣٣، وكان بناؤه على أساس الكنيسة التي كانت هناك أيام الاحتلال الأجنبي، وهي بدورها كانت مسجداً.. يرجع تاريخ تأسيسه إلى ما بعد دخول الإسلام إلى مدينة طنجة، وممن كان خطيباً في هذا المسجد التاريخي العلاّمة الحافظ المشهور بابن سيد الناس رحمه الله.

والجامع مَعْلَمَةٌ علمية فريدة من نوعها في مدينة طنجة خاصةً، وفي المغرب عامّةً.. ويقول في ذلك سيدي عبد الله كنّون رحمه الله: «مرّت على المسجد الأعظم فترة كانت الدروس لا تنقطع فيه، وفي أيام طلبنا كانت تنعقد فيه أكثر من عشر حلقات يومية للفقه والنحو والبلاغة والحديث والكلام والمنطق والأصول، وكان لوالدنا رحمه الله دائماً فيه حلقتان في اليوم، ولغيره من مشايخنا كأبي العباس أحمد السميحي، والسيد عبد السلام غازي وغيرهما حلقات أيضاً فضلاً عما لهم في غيره...». اهـ. من مجلة دعوة الحق.

ولا ننسى شيخ الطريقة الصديقية الذي شرف هذا المسجد بدروسه فيه هو وابنه سيدي أحمد رضي الله تعالى عنهما، ويحكي شيخنا سيدي عبد الله عن دروس الإملاء في الحديث النبوي للحافظ سيدي أحمد بن الصديق رحمه الله فيقول في (حياة الشيخ): «وقد كان يدرس صحيح مسلم وجامع الترمذي بالجامع الكبير بطنجة، فكان يملي ثمانين حديثاً بأسانيدها من حفظه بلا تلعثم ولا توقّف، ثم إذا فرغ منها يرجع، فيبتدئ بالحديث الأول فيتكلّم على تخريجه.. ثم ينتقل لرجال الحديث فيتكلّم على تراجمهم واحداً إثر الآخر.. ثم ينتقل لغريب الحديث وألفاظه المشكلة وإعراب ما يجب أن يعرب منه، ثم ينتقل إلى فقه الحديث ومعناه ومذاهب العلماء، ثم يصحّح ما هو الحق.. ثم ينتقل لفوائد الحديث وما يؤخذ منه». اهـ. بتصرف.

الطالب في المرحلة الابتدائية الآجرومية وابن عاشر والحساب ـ الجمع والضرب ـ والأدب والتاريخ ولامية ابن الوردي، والشَّمَقْمَاقِيّة لعبد الله كنّون، والجغرافية.

١٢ ـ انتشار التعصّب للمذهب المالكي:

إلاّ أنَّ السمةَ التي ميّزت هذه الفترة هي التعصُّب للمذهب المالكي من طرف كثير من الفقهاء، حتى إن شيوخ الطرق الصوفية، لقوة تيار التقليد، ألغى أكثرهم أُسّاً عظيماً من أسس التربية، **وهو التزام السنّة النبوية الصحيحة دون رأي الرجال**، كما سطّره الإمام الجُنيد رضي الله عنه حين قال:

«**مَنْ لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لا يُقتدَى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيّد بالكتاب والسنّة**».

وقال أيضاً: «**الطرق كلُّها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام**»[1].

ويحكي شيخنا في (نصب الموائد) عن هذه الظاهرة، فيقول:

«كان لي شيخ من كبار علماء طنجة وأعيانها والمنتسبين إلى البيت النبوي الشريف، قرأت عليه مبادئ العلوم من نحو وفقه وتوحيد وحديث، وكان يشارك في الحديث ويعتني بحفظه وخاصّة الصحيحين، غير أنه كان متعصّباً لمذهب مالك رحمه الله تعصُّباً مُزْرياً، فكان يرى من خرج عن المذهب وعمل بمقتضى الحديث والسنّة، مبتدعاً ضالاً من الخوارج والمنافقين، وسمعته مراراً في دروسه يطعن في من يضع اليد اليمنى على اليسرى في الصلاة، وينسب فاعل هذا إلى النفاق، ويستدل

---

(١) انظر: الرسالة القشيرية، ص٧٩.

بالآية: ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

فانظر ـ رعاك الله ـ إلى هذا الفهم للآية والتلاعب بكتاب الله، وتعجَّب من التقليد الذي يعمي ويصمُّ، ويُوقع صاحبه في المهالك. سامحه الله»(١).

ومن ثَمَّ كانت أكثر المصنّفات تدريساً في تلك الفترة وقبلها: مختصر خليل بالخرشي، أو الزرقاني، أوالبنّاني، أو الدردير، أو الرَّهُوني، ومتن ابن عاشر (المرشد المعين) بميارة الصغير أو الكبير، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني بشرح طالع الأماني وغيرها من كتب المالكية، فكان يختمها الواحد من الطلبة على شيخ من شيوخه مرات عديدة، وقليلاً ما كان يدرس فقه الحديث بالكتب المصنّفة فيه كـ(سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام)، و(نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار)، و(إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام)، بل لم يكن على علم بها الطلبة المبتدئون ولا حتى بعض الفقهاء المدرّسين...

حتى إن أحد شيوخ شيخنا وهو الفقيه ابن عمر رحمه الله كان يحفظ مختصر خليل بشروحه حفظاً منقطع النظير.. لكأنَّ شاشة معلوماتية في الفقه المالكي أمامه..

وفي هذه الفترة اشترى شيخنا حفظه الله أول كتاب حديثي هو (شرح الإمام النووي لصحيح مسلم)، فأخذ في قراءته، فإذا به يقف على أمور يخالف فيها المالكية قول الرسول ﷺ، فسأل أحد مشايخه عن هذه المخالفة وما سببها؟ فأجابه بأن يترك جانباً كتب الحديث، ويقتصر في طلبه على الفقه المالكي الذي «صفَّاه علماؤنا من كلّ شائبة خطأ أو نقص»

---

(١) نصب الموائد: ١/ ١٥٩.

في زعم هذا العالم .

وتكرّرت الحيرة مرّة ثانيـة حين قرأ شيخنا كتاب (زاد المعاد في هَدْي خير العباد) فذهب ثانية إلى أحد مشـايخه الذي أجابه قائـلاً : إنّ صاحب الكتاب حنبلي ونحن مالكية ، وأخذ في مدح المذهب المالكي ورجالاته وفقهائه، وأنه لا يجوز للمغاربة أن يعملوا بغير ما ذهب إليـه مالك بن أنس رحمه الله .

لكن المؤسف للغاية أنّ علماء هذه الفترة قد حرموا أنفسهم من علاّمة وقتهم، والحافظ الأوحد في زمانهم، سيدي أحمد بن الصديق رحمه الله ، بل شنّوا حرباً لا هوادة فيها عليه ، معتبرين إياه ملحداً، إذ دعا **إلى العمل بالسنّـة والدليل دون رأي الرجال .**

ولا يُخفي شيخنا حفظه الله تأثّره في تلك الفترة بالتقليد والتعصُّب للمذهب المالكي ، وإن كان ذلك سرعان ما ينقشع ضبابه إذا طالع المرء كتب الفقه المقارن ومصنّفات الحديث .

١٣ ـ مقارنة بين عهدين:

لكن ، إن كان التقليد هو داء تلك الحقبة من الزمن ، فلن يكـون ضرره أكثر من ضرر التكفير الطافح في عصرنا على سطح المكتوبـات والموسوعات ، والمخرج لأقوام من المسلمين من الملّة لأسباب غير داعية إلى ذلك . . بل أين ذلك الجو الروحي الرفيع الذي انساب فيه طلبة العلم في ذلك الوقت من جوِّ القذارة الأخلاقية التي نعيشها اليوم؟ ! .

ثم إنّ التراث المغربي في الفقه المالكي يكاد ينعدم حملته في هذه الأيام من ساحة العلم والطلب ، ويضاف إلى ذلك علوم العربية والأصول ، بعدما انساق التعليم النظامي الحالي وراء منهج الغرب في الأخذ والتلقين ، وصارت المدارس العربية متفرنجة قلباً وقالباً .

بقي شيخنا ملازماً لمقررات المعهد الديني في الجامع الكبير مدة سنة واحدة فقط، ليختار بعد ذلك الدروس التي تناسب مستواه دون التزام بالتدرج النظامي البطيء.

فإذا كان النظام التعليمي في المدارس مساعداً للطلبة في تحصيليهم لبعض العلوم وتهيئتهم منهجياً للتعامل مع النص قراءةً وكتابةً التعاملَ الجادَّ والمثمر، فإن إيقاع هذا التعليم قد يكون في بعض الحالات الخاصة مثبطاً لعزائم سريعي الحفظ والفهم من أهل الجد والنشاط.

كما أن النقص في التحصيل والبتر في التكوين، هي السِّمة الغالبة على التعليم النظامي الفاشل.

١٤ ـ من مزايا تلك الفترة:

ومما يحمد من تاريخ تلك الفترة أنَّ العلماء كانوا في مجموعهم يساندون التصوّف، ويحثُّون طلبتهم على قراءة كتب الرقائق والزهديات التماساً للحِكَم والمواعظ.

وما زال يتذكّر الشيخ حفظه الله أول كتاب في الرقائق اقتناه من الكتبي المشهور بالأشهب رحمه الله: كتاب (تنبيه الغافلين) للإمام أبي الليث السمرقندي، الذي صار أنيسه الدائم أثناء الطلب، فختمه مراتٍ عديدة مستفيداً منه تلك الومضات القلبية، وإن كان خليطاً من غثّ الآثار وصحيحها.

يقول شيخنا سيدي عبد الله عن هذا الكتاب وعن كتب الرقائق عموماً: «وقراءة الكتب الوعظية وأبواب الرقائق من كتب الحديث وغيرها لها تأثيرٌ ملموس في تنوير القلوب، وتهذيب النفوس، وتزكية الأخلاق، وحبّ الآخرة والعمل لها، وكاتب هذه الحروف ممَّن جَرَّب هذا ولمسه، فإنّني لمّا أنهيت قراءة القرآن الكريم، وهداني الله تعالى لطلب العلم، وقد

ناهزت العشرين من عمري، وقع بين يدي كتاب(تنبيه الغافلين)لأبي الليث السمرقندي، فجعلته أنيس وحدتي، وشغفتُ بقراءته، فتأثّرتُ به كثيراً، وتغيَّرت أحوالي، ورأيت فيه ما لم أكن أعلمه ـ لأني لم أكن آنذاك قد طلبت العلم، ولأني كغيري نشأت في وسط جاهل عمَّته الفتن من طرف الاستعمار ـ فلمّا منَّ اللهُ عليَّ بطلب العلم، واقْتنيتُ الكتاب المذكور صادف الوعاء فارغاً، والقلب على الفطرة لم يتدنَّس بعدُ بشيء، فكان النفع به عظيماً، والكتاب وإنْ كان مزيجاً من الأحاديث والآثار الصحيحة والموضوعة، فهذا لا يمنع من الاستفادة منه والانتفاع به.

فعليك يا أخي به وبغيره من كتب الرقائق والزهديات تَرَ ما رأيته.

وقد أكرمني الله بسبب قراءته وقراءة كتب أخرى أوسع فحفظني من طيش الشباب، وتأثّرت بسير الصالحين والزهَّاد والعبَّاد والأولياء، فكنتُ دائم التطلّع إلى مراتبهم، وكثير التعلّق بأحوالهم وأخلاقهم»[1].

١٥ ـ مبشِّرة منامية:

وفي هذه السنة بالذات رأى النبيَّ ﷺ في المنام في أولى مبشّراته العظيمة التي حكاها بنفسه في كتابه (المبشّرات التليدية).

كان ذلك بعد متابعته لدرس في النحو على الشيخ العالم الفقيه سيدي الحسن اللمتوني رحمه الله في الجامع الكبير ما بين الساعة العاشرة إلى الحادية عشرة من الصباح. وكان من عادة الشيخ النوم بعد هذا الدرس لقلة ساعات النوم بالليل، في ركن من هذا المسجد التاريخي.

قال حفظه الله: «رأيت سنة سبع وستين وثلاثمئة وألف كأنني بالمسجد الأعظم من طنجة، فقيل لي: هذا رسول الله ﷺ جالس،

---

(١) نصب الموائد: ١/ ١٢٤.

فقصدته فوجدته جالساً على صفة عالم عليه جلابة بيضاء وبرنس وعمامة ولحية سوداء، فقبّلت يده الشريفة، فقال لي: قم لتجمع الزكاة، فذهبتُ وجعلتُ أجمع القروش في حجري فأتيته بها، فقال لي: زكّها، فقلت له: وكيف ذلك؟ فقال لي: ألستَ تزكّي القرآن وأنك تقرأ منه حزباً صباحاً ومثله مساءً، فقلت: بلى، فقال: وكذلك هذه، ثم قلت في نفسي: الحمدُ لله الذي أتاني به لآخذ عنه العلم وأدرس عليه.

فاستيقظتُ فرحاً والدموع تسيل على خدي، فكانت فيها إشارة إلى **أخذي العلم من سنّته ﷺ وعملي بذلك لأن العمل هو زكاة الشريعة»**[1].

إنها بشارة عظيمة تنمُّ عن مستوى من السلوك والتربية كبيرين في بداية حياة الشيخ العلمية.

١٦ ـ عزمه على قتال الكفار:

وكما كان للشيخ توجّه وميل روحي، كان مهتماً بالشأن العام وخصوصاً بالاستعمار وآثاره.

ففي البداية خاصّة بعدما طالع كتاب الجهاد أثناء دراسته على المشايخ في المعهد، قرر بعدما شاهد الكفار والأجانب المستعمرين يعيثون في المغرب فساداً أن يهاجم تجمُّعاً من تجمّعاتهم فيقاتلهم حتى يُقتل.. فأخذ سكِّيناً طويلاً كان من بقايا سلاح والده، فذهب به إلى الحداد وأمره أن يحدّه من طرفيه، ثم شاور بعض مشايخه في ذلك، فحذّره مما يريد وذكر له عواقب ذلك، وأنه سيعرض نفسه للتهلكة، وربما بقي على قيد الحياة لينكّل به تنكيلاً من قبل قوات الاحتلال، فتأخر عن هذا العزم والحماس الثائر.

---

(١) المنح الإلـٰهية بالمبشرات التليدية، ص٩.

١٧ ـ تعرُّفه على الأحزاب السياسية:

وفي حي الدرادب حيث اجتماع الطلبة للصلاة على رسول الله ﷺ تعرّف شيخنا حفظه الله على طالب مساري يعمل عضواً داخل حزب الوحدة المغربي الذي كان يرأسه الفقيه المكي الناصري رحمه الله، فتحمّس الشيخ للعمل داخل هذا الحزب كجهاد سياسي ضد المستعمر الغاشم وأذنابه من الخونة.

تهيأت الظروف للقاء طلابي متميز في منزل أحد الوسينيين بحضور الفقيه المكي الناصري، فأسند إلى شيخنا الأمر بقراءة مقال سياسي أمام الطلبة بعد تلاوة القرآن، ليأخذ الكلمة زعيم الحزب ممهّداً لانضمام من تأخّر عن الالتحاق بالوحدة المغربية كسبيل موصلٍ لاستقلال المغرب وتحريره.. لم يفت الفقيه الناصري التنبيه على أهمية التصوّف والإشادة بالمؤلّفين فيه من رجالاته وشيوخه، وإن كان الفقيه السياسي ذا نزعة عقلانية في سلفيته ملموسة في كتاباته ومؤلفاته[١].. كل ذلك مراعاة سياسية لهيبة هذا العلم في نفوس الناس آنذاك.

١٨ ـ خيبة أمل:

كانت تلك هي بداية الشيخ السياسية التي لم تدم وقتاً طويلاً.. ففي اجتماع سياسيٍّ إسلاميٍّ، ضمَّ عدداً من القادة السياسيين المشهورين في العمل الإسلامي من عدد من البلدان الإسلامية، اتفق أن صلَّت جموع الطلبة والسياسيين في الجامع الكبير للسماع إلى خطبة سيدي عبد الحفيظ كنّون، ثم إلى كلمة إنعام الله خان، حول الوحدة والاختلاف بين المسلمين، ليلتقي الجميع بعد ذلك في يوم دراسي يجمع كل الأحزاب الإسلامية

---

(١) انظر كتابه (إظهار الحقيقة)، فقد شنّ فيه حرباً على التصوّف والصوفية.

المغربية في سبيل الاتحاد والالتحام.

ذهب الشيخ مبكّراً إلى مكان الاجتماع، وأخذت الجموع تترادف حتى صار المكان لا يتسع لمزيد من الحاضرين. فجاء وقت الظهر وتلاه وقت العصر وغربت الشمس، وجاء وقت المغرب، وليس في الجمع مَنْ يدعو إلى الصلاة أو ينبّه إليها من الفقهاء والعلماء؟!!.

أحسَّ الشيخ بخيبةِ أملٍ عظيمة حين لمس من قيادات الحركة السياسية آنذاك الرقة في الدين وإهمال الواجبات منه، فخلص إلى نتيجة مفادها: **أن لا خير فيمن أخَّر الصلاة عن وقتها، ولا أمل فيمن أخضع الدين للسياسة لا السياسة للدين.**

١٩ ـ مجزرة رهيبة:

وممَّا زاد الطين بلّة ما حدث في سنة ١٩٥٠م من مجزرة ذهب ضحيتها العديد من المتظاهرين في شوارع طنجة على يد المستعمر الفرنسي، فقد كانت رشاشات الخائن التمسماني، وأحد الضباط البلجيكيين متوالية على كلّ الجهات، مطيحة بكلّ من يعترض طريقها من الشهداء الأبرياء.

وفور حدوث المجزرة ذهب شيخنا حفظه الله إلى مقرِّ الحزب منتظراً أيَّ أمرٍ بردّ الفعل والتنكيل بالعدوِّ السافر، لكن بدون جدوى.. فالصمت عن هذا الحدث المؤلم من قِبَل قيادة الحزب جعلت شيخنا يتأكّد من هشاشة القياديين وضعفهم المتفاقم.

فالتنظيم مهما بلغ في الدقة والإحكام درجة عظيمة، فإنه لن يكون على قدم النبوة ومنهاجها الخالد، إن لم يلتزم بمبادئ التربية الإسلامية الجهادية وطرقها الأصيلة.

٢٠ ـ الزعيم محمد علّال الفاسي:

ومن زعماء الحركة الوطنية الذين أخذ عنهم شيخنا في هذه الفترة الزعيم محمد علاّل الفاسي رحمه الله. . فكان مما يقوله هذا العالم لطلبته: إنَّ استقلال المغرب سيأتي بالرفاهية والازدهار، حتى إنّ المواطن العاطل عن العمل من المغاربة سيتقاضى من الدولة عشرة دراهم في كل يوم، وكان الدرهم في تلك الفترة يعادل عشرة دراهم أو أكثر في عصرنا. . .

لا شك أن عصراً من الأماني المعسولة لا يمكن لرجاله أن يتقدّموا ببلادهم خطوات سديدة ما داموا لم يعتبروا بسنن التغيير في الكون، ويأخذوا بأسباب النصر المذكورة في الكتاب والسنّة أخذَ الجِدِّ والاجتهاد.

٢١ ـ مقروءاته على مشايخه:

قرَّر الشيخ سيدي عبد الله بعد ذلك، نظراً للإحباط الذي مُنيَ به على إثر اتّصاله بحزب يفتقر إلى روح التربية الجهادية، مغادرة مدينة طنجة والالتحاق بمدينة فاس، ليخوض تجربة جديدة في هذه البقعة العلمية العريقة بعدما تمرَّن على علوم الآلة والعربية والفقه والأصول.

فقد تردَّد الشيخ إلى مختلف المساجد وحِلَق العلم بطنجة[١] مدة ما

---

(١) طنجتنا المحروسة وإن كان لها من الأهمية في العهود الأخيرة حتى أصبحت العاصمة الدبلوماسية للمغرب لم يكن بها إلا ثلاثة مساجد وبعض الزوايا. . فأول مسجد بُني بطنجة بعد استرجاعها على عهد السلطان إسماعيل، هو مسجد القصبة، ثم زاوية بنيت في هذا العهد أيضاً، وهي الزاوية الناصرية، التي بناها الإمام أبو علي اليوسي، وثالث هذه المساجد هو الجامع الجديد، وقد بُني أيام السلطان عبد الرحمن عام ١٢٦٣. أما الجامع الأعظم أو الجامع الكبير، فقد أعيد بناؤه في عهد السلطان سليمان، وبأمرٍ منه عام ١٢٣٣ بعدما صيَّره الاستعمار كنيسة، فهو بذلك من أعتق المساجد في المغرب، أما مسجد أبي عبيد ومسجد مرشان فحديثٌ بناؤهما، حيث كان بناؤهما قُبيل الاستقلال.

بين ١٩٤٧ إلى ١٩٥٠م قرأ فيها على علماء المدينة والطارئين عليها راسماً بذلك خطة تكوينية خاصة به، فقرأ على العلامة الشيخ سيدي عبد الله بن عبد الصادق التمسماني: (ألفية ابن مالك)، و(نور اليقين)، و(تحفة الحكام)، و(رسالة ابن أبي زيد)، و(جمع الجوامع)، و(مختصر خليل بالشرح الصغير) للدردير في الفقه المالكي.

وقرأ على الفقيه محمد المكّي الناصري (الأربعين النووية).

وقرأ على العلاّمة الأديب عبد الله كنّون (ورقات) إمام الحرمين.

وقرأ على العلاّمة الفاضل السيد عبد الحفيظ كنون: (السنوسية) في التوحيد، و(رسالة ابن أبي زيد) مرتين، و(مختصر ابن أبي جمرة)، و(سنن ابن ماجه)، إلى النكاح، وبعض (صحيح البخاري).

وقرأ على العلاّمة السيد أحمد أبو حسين التفسير من أوله إلى سورة المائدة، و(الجوهر المكنون) في البلاغة.

وقرأ على العلاّمة محمد السّكِيْرِج (المقنع) في الفلك والتوقيت والحساب، وبعض الكتب الأدبية.

وقرأ على العلاّمة الأديب محمد علاّل الفاسي التفسير من سورة تبارك إلى ختام القرآن الكريم، وكتاب (الشمائل المحمدية).

وقرأ على العلاّمة النحوي السيد الحسن اللمتوني (ألفية النحو) مراراً.

وقرأ على الشيخ سيدي عبد السلام أبارغ المصوري (الآجرومية) بالأزهري.

وقرأ على العلامة سيدي محمد الساحلي الوسيني (توحيد) ابن عاشر، و(رسالة ابن أبي زيد)، وجملة من التفسير.

كما قرأ شيخنا على فقهاء آخرين، غير مترجمين وللأسف الشديد ضمن علماء تلك الفترة، في كتب التراجم المعاصرة:

منهم العلامة النحوي السيد عبد السلام الخنُّوس، وهو غير المقرئ عبد السلام الخنُّوس الذي حفظ عنده القرآن الكريم: قرأ عليه (الآجروميَّة) و(ألفية ابن مالك)، و(مرشد ابن عاشر) مراراً، و(رسالة ابن أبي زيد) مرة، وابن بَرِّي في قراءة نافع، وبعض (الشاطبية)، و(همزية البوصيري) و(مقدمة جمع الجوامع) في أصول الفقه، و(لامية الأفعال) والمنطق.

والفقيه المبارك الوسيني قرأ عليه لامية ابن الوردي في الآداب والأخلاق، ودروساً في الحساب.

والفقيه عبد الرحمن الجزائري قرأ عليه (ورقات) إمام الحرمين.

وأخوه الفقيه عبد القادر الجزائري قرأ عليه مبادئ الجغرافية.

والفقيه ابن عمر قرأ عليه (ألفية ابن مالك)، و(مختصر خليل)، و(تحفة الحكام) لابن عاصم.

والفقيه محمد بوليف قرأ عليه (تحفة) ابن عاصم.

والفقيه عبد الله الزرَّاد قرأ عليه (السلَّم) في المنطق بالقويسني.

والفقيه محمد الصائل الأنجري قرأ عليه (ألفية ابن مالك).

والفقيه التليدي قرأ عليه (ألفية ابن مالك) أيضاً.

دون أن ننسى الفقيه سيدي عبد المجيد زميزم رحمه الله الذي لازمه شيخنا في بدايته العلمية مدة قليلة.

وهذا تفريط من المؤرِّخين المغاربة خاصة الطنجيين منهم، إذ لم نكن لننسى جهود هؤلاء الفقهاء في نهضة العلوم الشرعية، وما قدَّموه من

تضحيات جسيمة مع طلبتهم في تلك الفترة، وإن اختلفنا معهم في وجهات النظر والاجتهاد.

وممَّن كان له الأثر الكبير في حياة شيخنا سيدي عبد الله من علماء هذه الفترة، العالم الرباني سيدي عبد الله بن عبد الصادق التمسماني رحمه الله، الذي أفرده شيخنا بالذكر في كتابه (نصب الموائد) الجزء الأول تحت عنوان: (من علماء طنجة).

٢٢ ـ والدته رحمها الله تعالى:

وينبغي الإشادة هنا بدور والدة شيخنا (رحمة بنت أبي حرمة بن علال) ـ رحمها الله ـ في هذه الفترة، وفي كل الأيام التي رافقته فيها، ذلك التاريخ المنسي عادةً من تراجم الرجال والعلماء.

فالأم توفّر لابنها الطالب ظروف الدراسة من أكلٍ سليم، وثياب نظيفة، وراحة معنوية، لا يكاد يجدها الطالب البعيد عن والديه الكريمين.

ففي هذه الفترة كانت والدة الشيخ تأتيه ـ من دون أن يطلب ـ بالغداء من مرشان إلى مسجد بوعبيد، وهي مسافة طويلة متعبة، مساعدةً منها له على اغتنام الوقت، وذلك لكثرة دروسه وضيق وقته.

ولهذا وتأكيداً لهذا الواقع الملموس رأى مرة والد شيخنا سيدي عبد القادر التليدي في المنام، كأنه مع ابنه وزوجته والدة سيدي عبد الله بقبيلة بني كرفط صحبة الإمام المهدي، والناس يتعجبون من والدة شيخنا ويقولون: **سبحان الله ماذا أدركت فلانة؟**[١].

---

(١) المنح الإلـٰهية، ص٢٣.

فهي السيدة العفيفة الشريفة رحمة بنت أبي حرمة بن علال، ولدت في العقد الأول من القرن الرابع عشر، وتزوَّج بها أبوه سيدي عبد القادر ثيباً، قد طُلِّقت من زوج سابق. رحمها الله برحمته الواسعة.

٢٣ ـ رحلته إلى فاس:

شدَّ شيخنا الرحلة إلى فاس في سنة ١٣٧٠هجري = ١٩٥٠ ميلادي مع أحد الطلبة المبرزين في طنجة اسمه سيدي أحمد بوبوط رحمه الله الذي كان معروفاً بغَيرته على الدين، وتأسّفه لحال المسلمين، وكان القصد هو الدراسة بمسجد القرويين[1] التاريخي.

---

(١) شرع في حفر أساس هذا المسجد التاريخي والأخذ في أمر بنائه العاهل الإدريسي يحيى الأول، وذلك في أول رمضان من سنة ٢٤٥ هجرية، وكانت أم البنين فاطمة الفهرية هي التي تطوّعت ببنائه، وظلّت صائمة محتسبة إلى أن انتهت أعمال البناء، فصلّت في المسجد شكراً لله، واستمرّ البناء حتى أيام داود بن إدريس الثاني سنة ٢٦٣هجرية.. ونقلت إليه خطبة جامع الشرفاء، وبذلك صار مسجداً جامعاً، وعرف بجامع القرويين منذ بنائه إلى اليوم، حيث بني بعدوة القرويين.. يقول سيدي محمد المنتصر بالله الكتاني في رسالته: (جامعة فاس القرويين أقدم جامعة في العالم): .. وعلى مرّ الدهور والأعوام تنافس الملوك والدول في توسيع بنائه ورصد الأموال للقيام به، فزاد فيه أيام الدولة الزناتية أميرها أحمد بن أبي بكر من خمس غنائم عام ٣٤٥هجرية.. وزاد فيه أيام الدولة المرابطية أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، ثم لم يزل يوسَّع ويجدَّد وتزداد أوقافه أيام دولة الموحدين، ودولة المرينيين، ودولة الوطاسيين، ودولة السعديين، إلى أيام دولتنا العَلَوية الحاضرة.. ومن العلماء الذين خطبوا بهذا المسجد والجامع التاريخي: المحدّث والمفسّر سيدي محمد بن يوسف المزدغي، والعارف الأديب محمد بن عبّاد، شارح الحكم، والعلامة الفقيه سيدي محمد بن أحمد بن غازي، في آخرين.

كانت الرحلة في تستُّر من رجال الحدود الفرنسيين؛ إذ كانوا يمنعون خروج أهل طنجة منها بدون رخصة قانونية، وبات الطالبان خلال الرحلة في (مدشر عرباوة) ليلة كاملة ليستأنفا السفر في الصباح إلى مدينة فاس.

كانت مدرسة الصفَّارين في فاس دار إقامة شيخنا سيدي عبد الله مع أحمد بوبوط والأخوين عبد السلام وعبد العزيز الخليع، فكانوا مقيمين جميعاً في محلّ واحد.

وبالرغم من قصر مدة إقامته بهذه المدينة العظيمة، فقد قرأ شيخنا في مسجد القرويين: مقدمة (جمع الجوامع) على العلامة سيدي السيد عبد العزيز بن الخياط.

وقرأ (توحيد ابن عاشر) على العلامة العباس بناني، و(مختصر خليل) على السيد إدريس العراقي.

والسيد عبد العزيز بن الخياط هو ابن سيدي أحمد بن الخياط الذي تَتَلمذ عليه سيدي أحمد بن الصدِّيق رحم الله الجميع.. وهو من أبرز العلماء في هذه الفترة تحقيقاً لعلم الأصول.

كانت الإضرابات والمظاهرات العائق الأول لمتابعة الشيخ دروس الفاسيِّين الذين كان علماؤهم لكثرتهم في هذا التاريخ يحتلّون كلَّ سارية من سواري مسجد القرويين العظيم.

٢٤ ـ اتِّصاله بالزاوية والمدرسة الصِّدِّيقيَّة وعلمائها:

وبسبب الفتن السياسية قرّر الشيخ الرجوع إلى مدينة طنجة، وأصبح يعين عدداً من الطلبة المبتدئين والمتدرّبين على تحصيل علوم الآلة والعربية بعدما تمرَّن وتدرّب عليها، فكانت من جملة مجامعه الطيبة

اجتماعه بمصطفى الفتوح، وعبد المجيد بوصوف، وعبد الملك بن عجيبة، في بيت والدِ هذا الأخير سيدي الغالي بن عجيبة أحد تلاميذ سيدي محمد بن الصدِّيق رحمه الله تعالى.

وقد مرَّ بنا كيف أنَّ شيخَنا تأثَّر في البداية بأقوال مشايخه في وجوب التقليد، وترك العمل بالسنّة والحديث.

ولكنّه حفظه الله وإنْ كان يسمع أساتذته يحذِّرون طلبتهم من لقاء الشيخ سيدي أحمد بن الصِّدِّيق وكوكبة إخوانه العلماء، فإنه لم يجد في قلبه كراهية للصدّيقيين المجدِّدين وعلى رأسهم الحافظ سيدي أحمد رحمه الله تعالى.

إلا أنه لم يُكتَب لشيخنا اللقاء بالإمام سيدي أحمد إلا بعد مضيّ أكثر من ست سنوات منذ طلبه للعلم.

نعم، وافق مرور شيخنا ذات يوم في أحد دروب مدينة طنجة مرورَ الشيخ البركة سيدي أحمد رحمه الله وجاهة على نفس الطريق، فلمَّا نظر في وجهه ولم يكن قد رآه من قبل، واجهته أنوار الصلاح، ونضارة أهل الحديث. . . ، فعلم أن وجهه ليس بوجه كذّاب.

كان لقاء شيخنا عبد الله حول النحو والعربية مع الطلبة الصديقيين السبب في زيارة شيخنا للزاوية في ذكرى من ذكريات شيخ الإسلام سيدي محمد بن الصديق رحمه الله تعالى سنة ١٣٧٢هـ = ١٩٥٢م.

إلاّ أنّ شيخنا حفظه الله أنكر على أصحابه العزف بالآلة الموسيقية داخل الزاوية تبنّياً منه لآراء فقهاء زمانه الذين كانوا يُحرِّمون استخدام الآلات الموسيقية ولو في ذكر الله والصلاة على رسول الله ﷺ.

فتعلَّل أصحابه الثلاثة بوجود علماء داخل هذا المَجْمَع المبارك،

وهم يقرُّون هذا العمل، ويرون مشروعيته، ويستدلّون لذلك بأحاديث لرسول الله ﷺ تبيح اللهو العفيف، وتسمح بالغناء والحداء!!.

وكان أول عالم صدِّيقي يتّصل به شيخنا هو الزمزمي سيدي محمد رحمه الله، الذي كان ينوب عن أخيه الأكبر في الخطبة، فقرأ عليه (بلوغ المرام)، وطرفاً من (لب الأصول) مع طالب آخر يدعى عبد الملك الريفي في غرفة من غرف الزاوية التي كانت مقرَّ سكناه رحمه الله.

وقرأ أيضاً في هذه الفترة على العلاَّمة المحدِّث الفقيه السيد عبد العزيز بن الصديق رحمه الله (سنن الترمذي) من أوله إلى نهايته، و(ألفية العراقي) في علم الحديث، و(نخبة الفكر)، و(تفسير الجلالين) إلى سورة هود وغير ذلك.. رفقة طالب يدعى عبد الكريم الجباري.

كما قرأ أيضاً على العلامة الأصولي السيد عبد الحيِّ بن الصدِّيق رحمه الله: (نخبة الفِكَر)، و(مفتاح الوصول)، و(طرفاً من سبل السلام)، و(الجوهر المكنون).

إلا أن سيدي عبد العزيز بن الصدِّيق رحمه الله، كان أكثر من يتخلَّله شيخنا من بين الصدِّيقيين آنذاك، فكان يلازمه في خروجه وفي بيته، بل ويبقى في منزله في حومة الحناط من منطقة مرشان، ريثما يعود من سفره مع أهله.. وكان أكثر ما يشغل بال السيد عبد العزيز قراءة وكتابة ـ في هذه الفترة ـ الحديث النبوي الشريف، والتصوّف.

ونظراً لكون الدقائق التربوية في تلك الفترة صارت في بداية أفولها وتراجعها، فإنه ذات يوم طلَبَ سيدي عبد الحيِّ بن الصدِّيق رحمه الله من شيخنا سيدي عبد الله أن يراعي اتصاله بالطريقة الصِّديقية ورجالاتها ومريديها، فيخصّص في اليوم ورداً من القرآن الكريم يداوم عليه، فإذا بالشاب التليدي اليافع يخبر خليله ويفاجئه بأن له في اليوم وِردَ خمسة

أحزاب من كتاب الله منذ مدة بعيدة.

تتلمذ شيخنا حفظه الله على الصدِّيقيين الثلاثة تبرُّكاً بهم وبآثار أبيهم سيدي محمد بن الصدِّيق رحمه الله تعالى، واغتناماً لفرصة التحقيق في مسائل من التفسير، والفقه، والحديث، والتربية، عبر المذاكرة والمناقشة.

٢٥ ـ لقاؤه بالشيخ سيدي محمد المنتصر الكتاني رحمه الله:

وفي هذه الفترة ما بين ١٣٧٢ و١٣٧٣هـ = ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣م قرأ شيخنا على العلامة المحدِّث السيد محمد المنتصر الكتاني ـ نزيل الحرمين الشريفين ـ (البيقونية) في علم الحديث، و(ورقات) إمام الحرمين في أصول الفقه، و(نور اليقين)، وخمسة أحزاب من تفسير القرآن الكريم.

كان الشيخ الكتاني، وهو من أبرز الخطباء السياسيين في هذه الفترة مع المشاركة في علوم مختلفة، النائب الأول للسيد محمد بن الحسن الوزاني زعيم حزب الشورى والاستقلال في مدينة طنجة.

ويعدُّ هذا الحزب من التنظيمات الإسلامية في المغرب قبل وبعد الاستقلال، التي بَذَلت جهوداً معتبرة لتوعية الشباب المغربي المسلم مُستندة في ذلك إلى المرجعيات العلمية، كالشيخ الكتاني رحمه الله الذي أتى إلى طنجة تحت نفقة الحزب مدرّساً ومعلّماً.

لم يَفُتْ سيدي محمد المنتصر الكتاني بعدما تعرَّف على نبوغ شيخنا وذكائه، أن يستقطب العالم الشاب سيدي عبد الله التليدي كعضو فاعل في الحزب، إلا أن تجربة شيخنا الأولى مع الوحدة المغربية حالت دون انضمامه إلى الاستقلاليين الجُدُد: الشوريين.

وكان ممَّن استشارهم في الأمر الشيخ الزمزمي رحمه الله الذي

أجاب في التوّ بالرفض القاطع، والامتناع الجازم، عن الدخول في معمعة السياسة الحزبية الفاشلة.

٢٦ ـ أول خطب الشيخ:

وفي هذه الفترة أصبح شيخنا خطيباً ليوم الجمعة في مسجد بالشجيرات من نواحي طنجة، فوافق يوم من أيام الجمعة منفى سلطان المغرب آنذاك محمد الخامس إلى مدغشقر، فراجت في المغرب فكرة الامتناع عن شراء الأضحية ليوم العيد كردٍّ فعلٍ وطنيّ ضد قرار المستعمر بنفي الملك الراحل.. فتقدّم أحد المواطنين لخطبة الشيخ بسؤال حول الموضوع، فإذا بشيخنا حفظه الله يبيِّن للناس **أنَّ الأضحية ليوم العيد سنّة إسلامية لا تتعلَّق بموت أحد أو نفي آخر**، فثارت لذلك ضجَّة في المسجد بين مؤيِّد ومُعارِض، انتهت إلى حدٍّ اتّهام سيدي عبد الله بالخيانة والعياذ بالله.

كان على الجماعة المؤيّدة للشيخ أن تذهب عند سماع هذا القذف الخطير إلى نائب الفرنسيين والمندوب التازي بشكاية، تلتمس إعادة الاعتبار لشيخنا المُهَان.. فاستدعى النائب الفرنسي كلّ من اتَّهم شيخنا بالخيانة ليتبيَّن حقيقة أقوالهم واتِّهاماتهم، فاعترفوا جميعاً بذلك، فسأل النائب الكافر الماكر هؤلاء قائلاً: حول ماذا يجمعكم خطيبكم؟ فأجابوا: حول مواضيع الأخلاق والتربية والوعظ والإرشاد.

فقال لهم: كيف تتهمون من يسعى لتذكيركم بأصول دينكم وتفاصيله؟! وأمر بسجنهم شهراً نافذاً.

كان شيخنا من بين المدعوين لهذه المحاكمة إلا أنه امتنع من الحضور مصمِّماً عدم معاودة الخطبة بهذا المكان ثانية.

لم يعاود شيخنا الخطبة بالشجيرات؛ لأنَّ الاستعمار استطاع أن

يستغلّ فتوى فقهية لعالم من العلماء ظنَّ الناس جهلاً أن صاحبها يريد النَّيْل من ملك البلاد المنفيّ؛ فأدَّب ـ لعنه الله ـ كل من حاول المساس بشخص شيخنا، وما يريد بذلك إلا الوقيعة بين المسلمين.

٢٧ ـ إقامته بمدينة (سلا) للقاء شيخه أحمد بن الصِّدِّيق:

وبعدما خرج سيدي أحمد بن الصدِّيق من السجن عام ١٣٧٤هـ كان عليه أن يختار مدينة (سلا) مكان سكناه، لعدم سماح الدول الاستعمارية له بالدخول إلى مدينة طنجة.

فكتب الفقيه الشاب سيدي حسن بن الصدّيق إلى أخيه الأكبر، يخبره بأخ جديد في الطريق يدعى عبد الله التليدي.

وفي أواخر سنة ١٩٥٣م سافر شيخنا سيدي عبد الله إلى (سلا) للقاء شيخ الطريقة الصِّدِّيقية، والحافظ الأوحد في زمانه، والمقاوم الشديد للكفر والكافرين في المغرب، فلازمه واستفاد منه في علم الحديث متدرّباً على تطبيقاته وتوجيهاته، وانتفع بعلومه انتفاعاً جمّاً.

وكان أول سؤال سأله شيخنا لسيدي أحمد بن الصدِّيق أن يقرأ عليه الحديث المسلسل بالأولية[١] كما هي عادة تلاميذ الحديث النبوي مع كبار شيوخهم، وهو حديث: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**».

---

(١) قال الشيخ العارف سيدي عبد الغني النابلسي رحمه الله في حديث الرحمة:

لقد أتانا حديثٌ عن مشايخِنا	مُسلسَلاً أوليـاً قد روينـاهُ
قال النبي صلاة الله دائمةٌ	مع السَّلام عليه عند ذكراهُ
الرَّاحمون همُ الرَّحمن يرحمهم	برحمة منه نرويه بمعناهُ
مَن كان يرحم مَن في الأرض يرحمهُ	مَن في السماء، تعالى الرَّاحمُ اللهُ

كانت تلك الفترة التي قضاها شيخنا في مدينة (سلا) من أجمل الأيام في حياته، قرأ فيها العديد من الكتب والرسائل، كما مكّنته من مذاكرة شيخه بين الفينة والأخرى، ومساءلته في كلّ ما يثير ذهنه من المسائل العلمية العالقة، التي تحتاج إلى دقّة المحققين وخبرة الباحثين.

اكتفى شيخنا في لقائه بالحافظ سيدي أحمد بالمذاكرة والمناقشة، وبشوط كبيرٍ من صحيح مسلم قرأه عليه في منزله، إذ كان الأهم بالنسبة للعالم التليدي الشاب، التحقيق، ثم التحقيق، بعد مضي زمن التكوين والتحصيل.

وفي هذه الفترة سيلتقي شيخنا من جديد مع الشيخ الكتاني رحمه الله الذي صار أستاذاً في جامعة الرباط، يدرس مادة مقارنة الأديان التي كان يحضرها حتى القساوسة والرهبان من النصارى، فكان سيدي عبد الله الواسطة بين شيخيه سيدي أحمد وسيدي محمد المنتصر اللذين كانا على صلة دائمة ولقاءات متواصلة تدور بينهما بسببها حوارات علمية نفيسة.

٢٨ ـ أثر صحبته للشيخ أحمد بن الصدِّيق:

كانت مدة صحبة شيخنا للعالم الرباني سيدي أحمد بن الصدِّيق بَلْسماً شافياً للعالم الشاب سيدي عبد الله حفظه الله، فلنتركه يحكي بنفسه عن أثر هذه الخلّة: «. . . كنت قبل الاتّصال به رحمه الله عنه مبتلى بمصيبة لا أقدر على الانفكاك عنها، ومنذ صحبتي له رفعها الله تعالى وعافاني منها ببركته، ولم أستطع الرجوع إليها مع همِّي بها وعزمي عليها، وهذا والله ما شاهدته من نفسي معاينةً مع تعجُّبي من ذلك.

فالحمدُ لله على صحبة أهل الله تعالى، أمثال مولانا الشيخ، الذين يحمون المنتمين إليهم بإخلاص وصدق ومحبة كاملة، ويحوطونهم،

ويراعون أحوالهم، ويحولون بينهم وبين الجرائم، كما وقع لجماعة من أهل الله تعالى مع تلامذتهم»[1].

فللّهِ درُّ شيخنا إذ لم يستنكف من ذكر هذه الواقعة التي وإن نسبته للخطأ والزلل، فهي من كرامات شيخ وآثاره، فلم يكن شيخنا حفظه الله لينكر جميل هذه العشرة الربانية.

وفي سنة ١٣٧٤هـ بقبيلة أَزْعِيْر رأى شيخنا حفظه الله مولانا الشيخ سيدي أحمد رحمه الله يقول له: إنّ رسولَ الله ﷺ يحبك.

وفي الصباح سأله شيخه: هل رأيت رؤيا، فقصّها عليه ففرح بذلك للغاية[2].

وتُعدُّ هذه الرؤيا مؤشّراً واضحاً للصعود العلمي المتألِّق لشيخنا حفظه الله، وتشرُّب مركّز وعميق من تعاليم النبوة ومعينها.

فبهذا تدرك سرَّ تغيّر السلوك للتلاميذ حين اجتماعهم بالأساتذة، سر الأدب النبوي الرفيع، وخفض الجناح بكل محبة، والإغضاء عن العيوب الظاهرة والخفية، مع عدم اعتقاد العصمة أو الغلوّ في الشيوخ كغلوِّ الروافض في أئمة آل البيت عليهم السلام.

٢٩ ـ عودته إلى طنجة:

وبعد سنة ونصف تقريباً في العدوتين عاد شيخنا إلى طنجة، وبقيَ شيخه سيدي أحمد في (سلا)، حتى عام الاستقلال، فعاد بدوره إليها، ليباشر بنفسه ترتيب داره في سوق البقر التي أصبحت ملاذاً للفقراء، وكان سيدي عبد الله بها خطيباً بأمرٍ من شيخه رحمه الله.

---

(١) انظر حياة الشيخ، ص٥٧.

(٢) المنح الإلـهية بالمبشرات التليدية، ص١٢.

وعانى شيخنا بسبب الخطبة من حَسَد بعض الأتباع الذين لم يرضَوْا به خطيباً، وهو داء خطير لمست ضرره في أول خطبة لي حين أمرني سيدي عبد الله بالنيابة عنه في جُمَعِ شهر رمضان المعظّم حينما سافر حفظه الله لقضاء مناسك العمرة لعام ١٤١٨هـ.

ولما رجع شيخنا حفظه الله من مدينة (سلا)، كان والده قد انفصل عن والدته، وتزوَّج في البادية بامرأة أخرى، فبقي سيدي عبد الله مع والدته المباركة بطنجة، وذلك في عام ١٣٧٥هـ.

فرأى والده سيدي عبد القادر في المنام، كأنه ذاهب للزاوية الصِّدِّيقيَّة، فإذا بجماعة من الناس داخلها مجتمعين على رجل، فدنا منه، فإذا هو رسول الله ﷺ يقسم بين الناس المفاتيح، قال: فرأيت في يده مفتاحاً عظيماً لم يعطِ أحداً مثله، قال: فبادرت لأخذه فسبقتني إليه زوجتي، يعني والدة شيخنا، فدفعه إليها ﷺ، قال: فعلمت أنه ولدي عبد الله الذي هو معها»[1].

ومن ثم كانت كنية شيخنا حفظه الله أبا الفتوح لتعدُّد أنواع الفتوحات عليه، فمن فتح في السلوك والأخلاق، إلى فتح في الحديث النبوي وعلومه، فالفتح الرباني الإلهامي الذي عزَّ وجوده اليوم في المشتغلين بالعلوم الإسلامية كالدكاترة والأساتذة الجامعيين.. وكان العارف بالله سيدي أحمد بن الصديق رحمه الله هو مَنْ كنَّاه بهذه الكنية الصادقة.

٣٠ ـ مقروءاته في طنجة على شيخه سيدي أحمد بن الصدِّيق:

قرأ شيخنا في طنجة على الحافظ سيدي أحمد في منزله بسوق البقر الأوائل العجلونية، والحديث المسلسل بعاشوراء، والحديث المسلسل بالعيد، وبعض الرسائل الأخرى.

---

(١) انظر المنح الإلـهية، ص١٣.

وأكثرَ شيخنا في هذه الفترة من مطالعة كتب شيخه ومؤلفاته المخطوطة والمطبوعة، فختم مرات متعددة كلاًّ من: (إبراز الوهم المكنون)، و(درء الضعف)، و(فتح الملك العلي) ليتدرّب على تطبيق قواعد علوم الحديث النبوي الشريف.

كما شرعَ شيخنا في هذه المدة في التمرّن على فنِّ التخريج فبدأ بكتاب (مفتاح الوصول في علم الأصول)، فكتب كراريس كثيرة في تخريج الأحاديث الواردة في هذا الكتاب القيّم.

٣١ ـ عزمه على الهجرة مع شيخه إلى مصر وبلوغه خبر وفاته:

وبعدما هاجر سيدي أحمد من المغرب إلى مصر، همَّ تلميذه سيدي عبد الله للالتحاق به، فأرسل إلى شيخه في ذلك ففرح كثيراً، فتهيأ شيخنا للهجرة، لكن عدواً من أعدائه حال بينه وبين جواز السفر، فأرجئت الرحلة إلى أن توفي الحافظ المتقن والشيخ البارع المتفنِّن العارف بالله سيدي أحمد بن الصدِّيق رحمه الله في القاهرة يوم الأحد فاتح جمادى الآخرة سنة ثمانين وثلاثمئة وألف، ودفن بها، تغمّده الله برحمته الواسعة.

يقول سيدي أبو الفتوح حفظه الله: «وفي مساء اليوم الذي انتقل فيه جاءنا نَعْيُه للمغرب، ومن الغد اجتمع الإخوان بالزاوية الصدِّيقية بطنجة، وذهبوا في موكب عظيم بالجلالة على لسانٍ واحدٍ للجامع الأعظم، فصلَّينا عليه صلاةَ الغائب، وكَثُرَ البكاء والنحيب، وتهاطلت الدموع على الخدود تأثُّراً بفقد أبيهم الروحي الذي كان لهم أباً رؤوفاً رحيماً، يأوون إليه ويفزعون إلى إرشاداته وتعاليمه»[١].

---

(١) حياة الشيخ، ص١١٣.

٣٢ ـ مراسلاته لسيدي عبد الله بن الصِّدِّيق:

كما كان شيخنا عبد الله أثناء هذه الفترة وقبلها وبعدها يراسل سيدي عبد الله بن الصِّدِّيق رحمه الله مدَّةَ إقامته في مصر إلى أن عاد إلى وطنه في سنة ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م، فالتقى به سائلاً إياه في أول وهلة سماع الحديث المسلسل بالأولية، كما أجازه إجازة عامة، وسافر رفقته إلى الحج مرتين، ودخلا سجن طنجة معاً في قصة، ستأتي تفاصيلها بعد قليل.

٣٣ ـ خلافات فقهية اجتهادية:

ورغم الاختلاف الذي قد يلاحظ بين اجتهادات كل من شيخنا والشيخ سيدي عبد الله بن الصدِّيق في مسائل فقهية فرعية، فإن هذا الأمر لم يثنِ شيخنا من صحبة مَنْ تأكَّدت صحبته من جهة الشرع، فكانت مدينة طنجة في هذه الفترة تعيش ازدهاراً علمياً وتربوياً منقطع النظير في المغرب كله، إذ كان على الساحة أكثر من أربع مدارس في الاجتهاد تنتمي إلى أسرة واحدة وجامعة موحَّدة.

فإذا كتب شيخنا عن وجوب القصر في السفر في كتاب سماه: (بزوغ القمر في وجوب قصر الصلاة في السفر)، فإن العلامة المحدِّث الأصولي الفقيه سيدي عبد الله بن الصدِّيق رحمه الله يكتب رسالتين في الموضوع نفسه تخالف رأساً رسالة شيخنا، عنوان الأولى: (الرأي القويم في وجوب إتمام المسافر خلف المقيم)، والثانية: (الصبح السافر في تحقيق صلاة المسافر).

وإذا كان رأي شيخنا في مسألة صلاة الجمعة لمن فاتته أو صلَّى وحده لعذر أن يصلّيها أربعاً كما هو مذهب الحافظ سيِّدي أحمد بن الصدِّيق رحمه الله في كتابه (الحسبة) المشهور ومذهب الأئمة الأربعة، فإنَّ المحدِّث سيدي عبد العزيز بن الصدِّيق رحمه الله، سيؤلف رسالة في

الموضوع، مفادها أنّ صلاة ظهر الجمعة ركعتان فقط سواء حضر المصلّي الجمعة أو لم يحضرها كما هو مذهب الظاهرية؟!.

وهكذا كانت التحقيقات في المسائل العلمية الأخرى حقلاً نافعاً للعديد من طلبة العلم في هذه الفترة، الذين تدرَّبوا على العلوم الإسلامية وخاصّة عِلْمَيْ الأصول والحديث.

٣٤ ـ نصُّ إجازة سيدي أحمد بن الصدّيق لسيدي عبد الله التليدي:

وإلى القارئ نصّ الإجازة العلمية التي كتبها سيدي ومولاي أحمد ابن الصدِّيق إلى شيخنا سيدي عبد الله، مرةً بسلا ومرة من القاهرة:

الحمدُ لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه؛ أما بعد:

فإنَّنا أجزنا الأخ في الله العلاَّمة الصالح، التقيّ الفالح، السُّنّيّ المحمَّدي السيد عبد الله التليدي الكرفطي إجازةً عامة مطلقة تامَّة في كلِّ ما أجزنا به أو رويناه وتلقيناه عن أشياخنا من سائر العلوم، ولا سيما علم الحديث الشريف ومصنّفاته، كما ذكرنا نصوص إجازاتهم لنا وأسانيدهم إلى تلك المصنفات في فهارسنا ومعاجمنا المتعدّدة التي طبع منها أصغرها، وهو (المعجم الوجيز). كما أذناه في تلقين ورد طريقتنا الشاذلية الدرقاوية الصِّدِّيقية الأحمدية المبنية **على العمل بالكتاب والسنة وتقديمهما على غيرهما من رأي الرجال وفقه المذاهب المخالف لهما، مع محبة الله تعالى ورسوله، والموالاة لمن يحبُّهما وينصر دينهما، والبغض والمعاداة لمن يعاديهما ولا يعمل بالكتاب والسنة ويقدم غيرهما عليهما**. وأمرناه أن ينوب عنا في نشر هذه الدعوة، وتلقين هذه الطريقة لمن أرادها كما أُذن لنا بذلك وأمرنا به أشياخنا. واللهَ تعالى نسأل أن يوفقّه وينفعَ به من اجْتبَاه من عباده آمين، والحمد لله رب العالمين.

قالـه بفمه ورَقَمه بقلمه: أفقـر الورى أحمد بن الصِّدِّيق في يوم الأحد ثالث عشر شهر رمضان المعظم من سنة ثمانٍ وسبعين وثلاثمئة وألف[1].

ويلاحَـظ أنَّ نص الإجـازة يمزج بين الإجازة العلمية وإجـازة الطريقة، كما أن إذن شيخ شيخنا لسيدي عبد الله امتدّ إلى إذن تلقين هذه الطريقة الصِّدِّيقيَّة ونشرها، مما يعني أنَّ أبا الفتوح سيدي عبد الله بن

---

(١) وجدت نسخة من هذه الإجازة عند المقرئ سيدي عبد الرحمن المغوغي، المقيم بالمدرسة الأولى لشيخنا حفظه الله. وهو المقرئ الزاهد والشريف الصالح العابد شيخنا سيدي عبد الرحمن بن عبد السلام بن الحسن المغوغي العمراني الأنجري. ولد بمدشر الخُوَيم ربع الغابَوِيِّين من قبيلة أنجرة قرب مدينة سبتة عام ١٣٤١هـ، ولما بلغ عمره ثلاث سنوات أدخله والده الكتّاب فحفظ القرآن الكريم، ثم بعد ذلك اتصل بشيخه الصغير، فأرسله إلى أحد تلامذته من خريجي القرويين يدعى سيدي أحمد أكدي أصله من مدشر البرقوق من قبيلة الأخماس، وكان مدرّساً بمدشر تمدايت من الأخماس الفوقية، فقرأ عليه علوم العربية والفقه، ثم اتصل بشيخنا سيدي عبد الله التليدي حفظه الله وأحسن صحبته ورافقه للحج مرة بما وجده من مال قليل بارك الله له فيه، وأصبح بعدها محفظاً للقرآن الكريم بالقرب من مدرسة شيخنا سيدي عبد الله التي يسكن فيها إلى الآن، ثم أصبح مكلّفاً من قبل الشيخ بتحفيظ القرآن الكريم بالمدرسة الثانية في جناحها العلوي المخصَّص لطلبة القرآن، وقد مضى على عمله هذا المبارك أزيد من نصف قرن ما شغله عنه شاغل، وكثيراً ما يأتي أحد الإخوة العاملين في أوروبا يطلبون منه أن يصير محفظاً لكتاب الله في المهجر، فيرفض الطلب، ويمتنع عن الإجابة، وإن كان ذلك سيدرّ عليه أموالاً طائلةً مكتفياً بما يجود الله تعالى به عليه، وكثيراً ما كان يقدّمه شيخنا سيدي عبد الله في صلاة التراويح ويصلي خلفه ويؤمّ بالفقراء في حال غياب مرشدهم، ولحفظ كتاب الله بين يديه بركات لا يخلو من اكتسابها أي طالب أخذ عليه، فمتَّع الله به أهل طنجة وخصوصاً منطقة مرشان الأبية.

عبد القادر التليدي قد صار شيخاً للطريقة الصِّدِّيقية الدرقاوية بالمفهوم التربوي الصُّوفي للكلمة بتعيين من شيخه.

كما أنَّ الطريقة الصدِّيقية الدرقاوية الشاذلية قد عرفت تجديداً في عهد سيدي أحمد رحمه الله يتجلَّى هنا في قوله: «... **المبنية على العمل بالكتاب والسنة، وتقديمهما على غيرهما من رأي الرجال وفقه المذاهب المُخالف لهما، مع محبة الله تعالى ورسوله، والموالاة لمن يحبهما وينصر دينهما، والبغض والمعاداة لمن يعاديهما، ولا يعمل بالكتاب والسنة ويقدّم غيرهما عليهما**».

٣٥ ـ شيوخه في الإجازة:

وفي الإجازة العامة التي تشرَّفتُ بأخذها من شيخنا سيدي عبد الله مرتين، المرة الأولى بطنجة، والثانية بمكة المكرمة، لائحة من المحدِّثين الكبار الذين أجازوا شيخنا في الحديث النبوي وعلومه، وسائر الفنون الإسلامية، وهم:

١ ـ سيدنا الحافظ أبو العباس **أحمد بن الصِّدِّيق** الغُماري رحمه الله تعالى.

٢ ـ شقيقه العلامة المحدِّث الأصولي **سيدي عبد الله بن الصِّدِّيق** رحمه الله تعالى.

٣ ـ شقيقهما العلامة المحدّث **سيدي عبد العزيز بن الصِّدِّيق** رحمه الله تعالى.

٤ ـ العلامة المحدِّث الاجتماعي **سيدي محمد المنتصر الكتاني** رحمه الله تعالى.

٥ ـ العلامة بركة سلا وصالحها سيدي **محمد الباقر الكتاني** رحمه الله تعالى.

٦ ـ المسند الراوية العلامة المحدّث سيدي **محمد ياسين الفاداني المكي** رحمه الله تعالى.

٧ ـ العلامة المحقّق العمدة المحدّث سيدي **عبد الفتاح أبو غدة** رحمه الله تعالى.

٨ ـ العلامة الداعية شيخ تلمسان سيدي **علي البوديلمي** رحمه الله تعالى.

٩ ـ العلامة الداعية المسند المحدّث المعمَّر التونسي سيدي **محمد الشاذلي بن محمد الصادق النيفر** رحمهما الله تعالى.

١٠ ـ العلامة المحدّث سيدي **محمد عبد الرشيد النعماني** الباكستاني رحمه الله تعالى.

١١ ـ العلامة المحدّث سيدي **محمد عاشق البُرني** الهندي رحمه الله تعالى.

١٢ ـ العلامة شيخ الطريقة الشاذلية بمكة المكرمة الصالح المعمَّر سيدي **محمد بن إبراهيم الفاسي** رحمه الله تعالى.

١٣ ـ العلامة مفتي الشافعية بمكة المكرمة سيدي **عبد الله بن سعيد اللَّحْجي الحضرمي**.

وممن استجازهم شيخنا أيضاً العلامة الكبير والعارف الزاهد سيدي **أبو الحسن الندوي** رحمه الله تعالى.

أما العلامة الداعية شيخ تلمسان سيدي علي البوديلمي فقد اتَّصل

بشيخنا أثناء زيارته للمغرب وطنجة المحروسة، فعقد معه صداقة أثمرت زيارات سنوية متوالية للشيخ البوديلمي لمدينة البوغاز، كان آخرها زيارته للمغرب، بعد رجوع سيدي عبد الله بن الصدِّيق رحمه الله من مصر الشقيقة. فالتقت الأعلام وتلاحمت الطرق في إخاء ومحبة وسلام.

ولقد زار سيدي عبد الله التليدي صديقه البوديلمي في الجزائر، فاغتنمها شيخنا فرصة طيبة لزيارة ضريح العلاَّمة الربَّاني سيدي أبي مَدْين رحمه الله بجبل العباد خارج تلمسان.

ومن الشيوخ الذين تدبَّج معهم شيخنا الشيخ سيدي محمد بن عبد الرشيد النعماني، وسيدي محمد الشاذلي بن محمد الصادق النيفر، وبقية السلف الصالحين في مكة المكرمة سيدي محمد بن علوي المالكي حفظه الله تعالى.

والعلامة التونسي المرموق سيدي محمد الشاذلي بن محمد الصادق النيفر قد استجازه شيخنا بالمراسلة، أما باقي مجيزي شيخنا فقد التقى بهم في محافل ومناسبات متعددة.

٣٦ ـ اجتماعه بالعلامة المحدّث سيدي عبد الفتاح أبو غدة:

وفي حجة شيخنا الثالثة التقى مع الشيخ سيدي عبد الفتاح أبو غدة «في صدفة خير من ألف ميعاد»، ذلك أن شيخنا رفقة أتباعه، سيصلُّون في الجامع الذي يخطب فيه الشيخ أبو غدة بحلب[(١)] وكان يوم جمعة، وبعد الصلاة مباشرة سلَّم شيخنا مع مريديه على الخطيب الفصيح الذي انتبه

(١) هو جامع الخسروية قرب قلعة حلب الشهيرة، وبجانب المسجد الثانوية الشرعية العريقة المعروفة بالخسروية، التي تخرَّج منها عدد كبير من النابغين في العلوم الشرعية.

للزّيّ المغربي لسيدي عبد الله، فلحقه بعد ذلك، خاصة عندما علم بمجيئهم من مدينة طنجة، وكان قد لقي الشيخ العارف بالله سيدي **أحمد ابن الصدِّيق** في حلب واستجازه، ودرس على أخيه سيدي عبد الله بالقاهرة. رحم الله الجميع.

استضاف العالم الحلبي شيخنا للعشاء في بيته، فكان من جملة الإشكالات العلمية التي ناقشها العالمان مسألةٌ في الحديث النبوي تدور حول قول النبيّ ﷺ في سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام: «**وتُجمع له الصلاة**»، يعني في آخر الزمان.

استُكشل أمر هذا الحديث على الشيخ عبد الفتاح كثيراً، ليجد جوابه الشافي عند أستاذنا، بقوله: معنى ذلك أنه ستبطل كيفية الصلاة لدى جميع أهل الأديان، وستبقى صلاة واحدة هي صلاة المسلمين اليوم التي سطرتها السنة النبوية الصحيحة.

وكان الشيخ عبد الفتاح يومها يحقق كتاب (التصريح في نزول المسيح) للمحدّث الإمام محمد أنور شاه الكشميري رحمه الله.

وإن كان شيخنا يشترك مع المحدِّث المحقّق سيدي عبد الفتاح أبو غدة في العديد من مشايخه، فقد أبى سيدي عبد الله التليدي إلا أن يستجيز الشيخ أبا غدة لمكانته العلمية، ومنزلته الدعوية العالمية، فأجازه إجازةً عامة، رحمه الله تعالى.

ثم تكرّرت لقاءاته مع فضيلة الشيخ في عمراته الكثيرة بمكة المكرمة، بصحبة تلميذه الأخ الكريم **الأستاذ مجد مكي** وفّقه الله ورعاه.

٣٧ ـ الشيخ والوراثة المحمّدية:

بعد وفاة شيخه سيدي أحمد رحمه الله تعالى، استقلّ سيدي عبد الله

بنفسه فَلَزِمَ بيتاً من صفيح في حيٍّ الدرادب اكتراه بخمسة دراهم، واعتكف على القراءة والمطالعة، فقرأ كتباً كثيرة في مختلف الفنون والعلوم، من تفسيرٍ بأنواعه، وحديثٍ بشروحه، وفقهٍ على سائر المذاهب وأخلاق وتربية وسلوك وتراجم وتاريخ وسِيَر وجغرافيا وفلك وتوقيت وأصول وفلسفة وغير ذلك.

والعلوم التي يميل إليها ويشتغل بها في نفسه بكثرة، هي التفسير والحديث والفقه على سائر المذاهب والآداب والأخلاق والزهديات والرقائق.

لم تكن ملامح الفقر باديةً على شخص شيخنا حفظه الله، بل كان مستور الحال بين الناس إلا على مَنْ جاوره في السكنى أو لازمه في الصحبة من مريديه الذين عاينوا منه عيشة الكفاف وحياة قوت اليوم.

٣٨ ـ الكوكبة الأولى من مريديه:

وكان له في بداية مشيخته في حياة شيخه أربعة من الأتباع هم: الحاج سيدي **حمادي التمسماني**(١)، والحاج سيدي **عبد الله الرواس** من جبل حبيبي، والحاج سيدي **عبد الرزاق الورياغلي**(٢).

---

(١) هو الفقير إلى الله سيدي حمادي التمسماني أحد تلامذة الشيخ سيدي أحمد بن الصدِّيق، الذين ظلُّوا أوفياء لوصايا شيخهم، فلازموا بناء على هذه الوصايا الشيخ البركة سيدي عبد الله إلى يومنا هذا، فكان نِعْمَ الصاحب ونِعمَ الجار لشيخ قلَّ مساعدوه في بداياته العلمية. يسكن بالقرب من منزل الشيخ في حي مرشان عن سن تفوق السبعين سنة. وهو صاحب جد واجتهاد في خدمة المؤمنين والطلبة رغم كبر سنه ووهن عظمه وشدة مرضه. فجزاه الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء.

(٢) ولد هذا الشيخ عام ١٣٥٠هـ الموافق ١٩٣٠م، وقصة التحاقه بالطريقة الصدّيقية=

ولا ننسى المقرئ الفاضل سيدي **محمد عْلِيْلو**[1] رحمه الله الذي يعدُّ من أقطاب القراءة القرآنية إتقاناً في مدينة طنجة.

وانضاف إليهم بعد ذلك المقرئ الزاهد سيدي **عبد الرحمن المغوغي** والحاج سيدي **شعيب المجاهد** رحمه الله، والحادي الرباني سيدي **عبد القادر العوامي**، والحاج سيدي **محمد الكواي** رحمه الله، والأخوان الكتاميان الحاج **شعيب** والحاج **محمد**، في آخرين.

ويلاحظ أن شيخنا سيدي عبد الله لا يحرص على كثرة الأتباع، ويقتصر في شأن التربية الروحية على ثُلَّة فقط من تلامذته، ويترك طلبتَه المتكاثرين يختبَرون ذكاءَهم ومعرفتهم بالشيوخ حتى يتأكّد لديهم ضرورة

= عجيبة، ذلك أنه كان يقطن بمدينة أزيلا التي تبعد عن مدينة طنجة بضعة كيلومترات، وكانت أم زوجته بين الفينة والأخرى تقول له: الْحَقْ إخوانك بطنجة، وكانت كالمجذوبة.. وبعد خلاف وأخذ وردّ أَذْعَنَ سيدي عبد الرزاق لرأي هذه الملهَمة، فرحل إلى مدينة طنجة ليستريح في حي يبعد بعض الشيء عن حي مرشان حيث اجتماع شيخنا بالشيخ سيدي حمادي التمسماني، وإذا برجل يأتيه بخبز وشيء من الزيتون، فلما شبع أراد الذهاب إلى المسجد لأداء ما عليه من الصلاة المكتوبة: صلاة الصبح والظهر والعصر، فأشير عليه بمسجد مرشان، فذهب للصلاة به ليجد هناك الشيخ سيدي حمادي التمسماني الذي انتبه لكثرة ركوعه وسجوده، فانهال عليه بالوعظ الشديد منبهاً إياه لخطورة تأخير الصلاة عن وقتها المشروع، ثم حمله بعدها لزيارة شيخنا سيدي عبد الله الذي كان يومها قد عاد من مدينة سلا، وما زال سيدي عبد الرزاق إلى اليوم على قيد الحياة مريضاً في بيت له بحيّ العوامة من طنجة، شفاه الله.

(١) هو الفقيه الأنجري سيدي محمد عليلو من مواليد ١٣٤١هـ، وهو من أفراد هذا الزمان إتقاناً للرسم القرآني، وحفظ كتاب الله تعالى في مدينة طنجة، كان عضواً في حزب الشورى والاستقلال، ثم تاب من تفرنجه على يد الشيخ سيدي أحمد بن الصدّيق رحمه الله، أخذ النسبة الصدّيقية ثم النسبة التليدية.

اتّخاذ شيخ لتربية نفوسهم، فقد نجد طالباً من طلبة الشيخ في زاويته قد قضى سنوات طوالاً من صحبة سيدي عبد الله وملازمة دروسه، فكانت المذاكرة بالنسبة له هي ورده اليومي دون أن يرتقي إلى تعلُّم أوراد وأذكار نبوية من الشيخ يداوم عليها في إصلاح سريرته وتربية وَجْده وقلبه.

وحتى يقوم شيخنا حفظه الله بالدعوة وتعليم الطلبة السنة النبوية الصحيحة وعلوم الشرع، كان لابد من أن يقيّض الله له إخواناً يلتفُّون حوله، ويقومون بشؤونه، ويسعون في حاجاته، فكانت هذه الكوكبة المباركة الأولى من طلبته ومريديه، الساعد القوي الذي بنى به سيدي عبد الله صرح الدعوة السنيَّة في أحياء من مدينة طنجة، وضواحيها من قبائل ودراس وأنجرة وبني كرفط وبني عروس وغمارة وغيرها.. إلى أن بلغ هذا الجهد إلى مدينتي تطوان ومرتيل، حيث تكاثرت الجموع الذاكرة لله تعالى والمقتفية أثر الرسول الأكرم ﷺ.

٣٩ ـ تنقُّله في الإمامة والخطابة:

أصبح شيخنا بعد هجرة العارف سيدي أحمد بن الصدّيق إلى مصر يعقد مجالس العلم في جامع الحاج مسعود بحيِّ المُصَلَّى ويخطب فيه، لتبدأ فتن من بعض أتباع سيدي أحمد رحمه الله تعالى، الذين لم يرضوا بتلميذه سيدي عبد الله خطيباً ولا إماماً، فترك شيخنا هذا الجامع بإشارة من القاضي الشرعي، لينتقل إلى مسجد صغير في حيّ المطافي من مرشان، ثم إلى جامع السوسيين أبي عبيد الذي أصبح يستقبل العشرات من الطلبة الجُدد للشيخ حفظه الله.

وأثناء إلقائه لدرسه بمسجد أبي عبيد تسلّل أحد المتفرنجين إلى المسجد ليسأل شيخنا باحتيال جاسوسي عن رأيه في عضو من أعضاء الأسرة العلوية المالكة، فكان جواب الشيخ المتسرِّع شديداً وناقداً، وفي اليوم التالي مُنِعَ الأتباع والطلبة، ومعهم شيخنا من ولوج الجامع

والتدريس فيه.

وإلى أيِّ مكان! فقد انبرى بعد ذلك الصاحب الخدوم الشريف سيدي عبد الرزاق بن بوزيان أوفقير الورياغلي، ليفتح منزله للشيخ والأتباع وجمهور من الطلبة بلغ مئة طالب، ليفوز هذا الفقير الصادق بالأجر الجزيل، فقد أصبح منزله مقرّاً مؤقّتاً للزاوية التليدية المنتظرة ونواة أصيلة لها.

كما صار بيت هذا الصاحب الصادق محل سكنى شيخه الذي سينتقل من العزوبة إلى الزواج بعائشة اليدرية التي كان سنها لا يتجاوز السادسة عشرة بينما كان الشيخ قد قارب الثلاثين من عمره.

ضاق المكان بالطلبة الوافدين بكثرة، فانتقل بعد ذلك الشيخ بكوكبته الطلابية إلى جامع بوعرّاقية الذي سرعان ما خاف مُسيِّروه من فتاوى الشيخ السياسية، فطلبوا منه مغادرة جامعهم إلى مسجد المطافي السابق الذكر، بينما بقيت دار سيدي عبد الرزاق مقرّاً للأتباع ومسجداً يخطب به شيخنا ويسكن فيه.

وبإشارة من أحد الفقراء بنى شيخنا بيتاً من صفيح في حي مرشان على أرض خراب، فأصبح يجتمع بها مع طلبته لمتابعة التدريس، إلى أن أشار سيدي عبد الرزاق ببناء مسجد في منطقة مرشان، يكون مقرّاً للأتباع وجامعاً لطلبة العلم والقرآن، فتحمَّسَ للقضية الحاج سيدي شعيب المجاهد الذي بنىٰ بماله الخاص المسجد الأول لشيخنا سيدي عبد الله بارك الله في عمره.

وبإنشاء المسجد صار لزاماً على أحد الفقراء أن يرعاه ويتفقّد أحوال الطلبة الوافدين عليه، فكان الشخص المناسب لهذه القضية هو

سيدي عبد الرزاق الذي انتقل من بيته المكترىٰ إلى بيتٍ بناه له سيدي شعيب المجاهد رحمه الله فوق المسجد الوليد.

كما بنى سيدي شعيب بيتاً آخر فوق مقرّ الفقراء لشيخهم وأستاذهم، ليجد الطلبة معلّمهم بالقرب منهم، فتتيسر لهم أوقات الدراسة، ويوفر الشيخ البركة سيدي عبد الله وقت الدخول والخروج والذهاب والإياب للمطالعة، والبحث والكتابة والتأليف.

٤٠ ـ حجه إلى بيت الله الحرام وزيارة خير الأنام ﷺ:

حجته الأول: ظلّ الشيخ حتى سنة ١٩٦٣م متشوّقاً إلى زيارة مسجد النبي المصطفى ﷺ، وأداء مناسك الحج والعمرة في تلك البقاع المقدّسة الطاهرة، لكن في كلّ محاولة له للوصول إلى ذلك المقام العزيز يتعذّر السفر وتتأخّر الرحلة.. إلى أن جاء سيدي شعيب المجاهد رحمه الله يسوقه القضاء والقدر ثانية لأجر السبق الجزيل، ليؤدي عن الشيخ وتلميذه سيدي عبد الرزاق ثمن السفر إلى الديار الحجازية على متن الباخرة.

حجّته الثانية: وفي السنة الموالية سيسافر الشيخ على متن طائرة فرنسية التي حطّت رحالها أولاً في باريس، ليتوجّه في الغد إلى مصر، حيث زار ضريح شيخه سيدي أحمد بن الصدِّيق، بالإضافة إلى عدد من تلاميذه المصريين، كالشيخ أحمد مرسي رحمه الله، ليتّجه بعد ذلك إلى الحرمين الشريفين.

حجته الثالثة: وعلى متن القطار في رحلة ثالثة سافر الشيخ إلى الديار المقدّسة عبر دول أوروبا المتوسطية، فبلاد الشام وصولاً إلى مدينة الرسول ﷺ.

كانت هذه الرحلة منقطعة النظير، شاهد من خلالها الشيخ حفظه الله

عجائب من حضارة الغرب وتقدمهم الكبير على مستوى التنظيم والتقنيات، كما لمس أيضاً مدى تأخُّر بلاد المسلمين على مستوى النظافة والتطهير.

توالي حجّاته وعمراته: وتوالت الحجَّات وتجدَّدت الزيارات، فتحقَّق موعود رسول الله ﷺ مع شيخنا سيدي عبد الله، والذي ستمرُّ بالقارئ تفاصيله: في كل سنة **عمرة** أو حجّة أو هما معاً.

كان شيخنا حفظه الله يوفِّر ثمنَ الرحلة إلى الحجاز من اشتغاله بالعقار، أي من ربح بيعه لكلِّ دار سكن بها في تلك الفترة، فينتقل منها إلى دار أخرى يبنيها بماله الخاص.

٤١ ـ رحلاته وزياراته لأكثر البلاد الإسلامية:

ومن خلال هذه الرحلات زار أكثر البلاد الإسلامية، مقيماً في كلٍّ منها يوماً أو يومين، فدخل الجزائر وتونس وليبيا ومصر مراراً، والحجاز والكويت والعراق والأردن وفلسطين ولبنان وتركيا، ولقي في هذه الأقطار كثيراً من العلماء والمفكّرين والصالحين والمتعبّدين ورجال الدعوة الإسلامية.. وفي سوريا لقي كُلاًّ من الشيخ ناصر الدين الألباني والشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وفي الحجاز التي أكثر من زيارتها لقداسة الحرمين الشريفين، فيها اجتمع بالعديد من العلماء، منهم: محمد علي الصابوني الحلبي، وأخوه شاعر طيبة ضياء الدين، وسيدي محمد ياسين الفاداني، وسيدي محمد بن علوي المالكي، وسيدي عمر فلاتة، والشيخ القاضي محمد عطية سالم، وسيدي محمد بن إبراهيم الفاسي، وسيدي أحمد عز الدين البيانوني، وسيدي عبد الله اللحجي، والشيخ عوض اليمني، وسيدي الشيخ العالم المفكِّر المفسِّر عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني.. بالإضافة إلى العديد من الأساتذة والدكاترة وروّاد الجامعات الإسلامية هناك وطلبتها.

وعندما يحلّ حفظه الله بالحرمين الشريفين ترى أفواج الطلبة والباحثين وأساتذة الجامعات تبحث عن محلّ إقامته للّقاء به والأخذ عنه.. ومن الباحثين الذين يبذلون كل ما في وسعهم للقائه كما شاهدت ذلك وعاينته: الشيخ سيدي **مَجْد بن أحمد مكي**، والأستاذ سيدي **أحمد محروس**، والدكتور الشريف سيدي **سعيد بن عبد الله العلوي**، والدكتور المقتدر سيدي **قاسم سعد**، في آخرين.

٤٢ ـ الإرث السياسي والعلمي لشيخه سيدي أحمد بن الصِّدِّيق:

كان لصحبة شيخنا لمولانا سيدي أحمد رحمه الله ثمن باهظ، إذ تحمَّل سيدي **عبد الله** من بعد شيخه الإرث السياسي بما في ذلك المُشاجرات مع بعض الأحزاب المغربية، والإرث العلمي بما في ذلك المناظرات مع طوائف المبتدعة والمتعصّبة.

أما سياساً، فقد اهتمّ الشيخ للهجرة من المغرب، واللجوء إلى الحجاز، مجاوراً للمقام النبوي الشريف، لما رآه في بلدنا من الويلات ومُسَلْسَل متتابع الخيانات أيّسته من البقاء في وطنه.. فلخَّص لنا الشيخ التاريخ السياسي المغربي وآثاره على خُوَيصة نفسه في كتابه (نصب الموائد) تحت عنوان: وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم[1]، فقال:

«لقد عشنا تحت الاستعمار ثلاثين سنة كاملة عندنا بشمال المغرب من الطفولة إلى وسط الشباب، وشاهدنا أيامه، وذقنا من المحن، ورأينا من المناكير والويلات ما هو معروف في كلّ الأقطار التي استعمرت من طرف العدو الكافر.

وعندما استقلّت بلادنا وذلك عام ١٣٧٦هـ وانتقل العدوّ بجيوشه

---

(١) نصب الموائد لذكر الفتاوى والنوادر والفوائد: ٢/ ٢٣٠.

وحكّامه، كنّا نتوقّع ونأمل أن تنقلب الأوضاع من تلك المخازي التي عشناها مع الاستعمار، إلى مجتمع إسلامي طاهر نظيف، يحكمه المسلمون، ويُطبَّق فيه شرع الله العزيز، كما كان يعدنا به الزعماء الثرثارون المتفرنجون، لكن خابت ظنوننا، وطُبِّق علينا ما لم نكن نعهده أيام الاستعمار، حتى ضاقت بنا الأرض بما رحبت، وفكّرنا في المخرج، ومفارقة هذه البلاد الظالمِ أهلُها، فلم نجد ملجأً نلتجئ إليه، ولا بلداً إسلامياً نظيفاً نقيم فيه، ولم نرَ أمامنا إلا بلادنا المقدَّسة التي هي وطن كل مسلم؛ مكة والمدينة، التي تكفَّل الله عزَّ وجلّ بحفظهما من قذر الاستعمار الكافر، ولما شاهدنا فيها من الخير، وظهور الدين، ونظافتها في الجملة من المظاهر القذرة البغيضة التي نشاهدها ونعايشها في بلادنا».

٤٣ ـ عزمه على الهجرة إلى الديار الحجازية:

ويتابع شيخنا كلامه فيقول: «ولما كانت سنة ١٣٨٧هـ، وقد مرَّ على الاستقلال قرابة من اثني عشر عاماً، عزمت على الهجرة إليها بزوجتي وطفليّ الصغيرين آنذاك، فشرعت في بيع مكتبتي والاستعداد للسفر، واخترت أن تكون الإقامة بالمدينة المنوّرة مجاوراً لحبيب الله ﷺ.

فسافرت أيام الحج لأبحث عن اللوازم المطلوبة لدى الحكومة السعودية لمن يرغب في الإقامة هناك، ولما زرت المدينة علمتُ بأنّ بها رجلاً صالحاً جزائرياً مهاجراً بها من زمان، فزرته في بيته، واستشرته في الموضوع، وأتذكَّر أنه لم يوافق.

ومن الغد رجعت إليه فأخبرني بأنّه رأى رسول الله ﷺ الليلة في المنام، وأمره أن يبلّغني بأنّه لا إذن لي في الهجرة، وأنَّ الواجب عليَّ أن ألزم بلادي، لينتفع بي الناس، ولي الإذن في الزيارة كل سنة.

فلمّا قصَّ عليَّ الرؤيا وقعتُ في حَيْرة، وبقيت متشكِّكاً في الأمر،

لكن الواقع فيما بعد صدَّق الرؤيا، وعلمتُ أنَّ الشيخ رحمه الله تعالى كان صادقاً، وأنّ الأمرَ كما قال: فإنَّ الهجرة أولاً: لم تتيسَّر لي، وحصلت لي برودة مما كنت مصمّماً عليه، وثانياً: حصل بي نفع شامل لأقوام من المؤمنين، لا يُحْصَوْن كثرة، وبالأخصِّ طلبة العلوم الدينية، فقد ختمت معهم تفسير القرآن الكريم بالجلالين وابن كثير وصفوة التفاسير والخازن أربع مرات، ونحن الآن في الخامسة، وقد أشرفنا على ختمها، وقرأت معهم البخاري ومسلماً أكثر من خمس مرات، والترمذي وأبا داود مرة، و(عمدة الأحكام) و(بلوغ المرام) مرات، و(نيل الأوطار) مرتين، ونحن الآن في الثالثة فضلاً عن (الشمائل المحمّدية)، و(الأربعين النووية).

وختمتُ معهم (ألفيّة الحديث) للعراقي أربع مرات، ونحن الآن في الخامسة في الجرح والتعديل، وقد ختمناها والحمد لله، و(نخبة الفكر)، و(الباعث الحثيث) مرات، و(ألفية ابن مالك)، و(مقدّمة ابن آجروم) مرات، و(الورقات)، و(مفتاح الوصول)، و(أصول الفقه لخلاف)، ولشعبان، و(المرشد المعين)، و(رسالة ابن أبي زيد)، و(نور اليقين) (وفقه السيرة) للبوطي مرات، وغير ذلك.

وهذا بالإضافة إلى خطبة الجمعة كل أسبوع، والنصائح والإرشادات العامة، مع الأجوبة عن الأسئلة التي تأتينا دائماً.

بذلك كلّه عرفتُ أنّ ما قاله ذلك الشيخ صحيح لم يبقَ لي فيه شك، فإنّ بلادنا كباقي البلاد الإسلامية المنحرفة، تحتاج إلى دعاة ومرشدين ومصلحين، أما البلاد المقدّسة فلا تحتاج إلينا، فإنها مليئة بأهل العلم والدين.

ثالثاً: قد هيَّأ الله لي زيارة الحرمين الشريفين كلّ سنة إما في حجّ أو في عمرة من ذلك الحين سنة ١٣٧٨هـ = ١٩٦٨م، إلى وقتنا هذا سنة

١٤١٣هـ = ١٩٩٣م[1].

فكان الأمر كما قال الشيخ عن الرؤيا، وزاد هذا تأكيداً أني رأيت مرة كأنَّ رجلاً صالحاً يقول لي: إنّك بإذن الله، وصِدْق محبّتك واتِّباعِكَ منهجِ رسول الله ﷺ تحجُّ كلّ سنة، وتفعل كذا وكذا لأشياء حسنة لم أتذكّرها.

نسأل الله تعالى أن يديم علينا نعمه، ويزيدنا من فضله، وأن يتجاوز عما جنيناه، ويسامحنا في تقصيرنا، إنّه جواد كريم». اهـ.

وهنا تنبغي الإشارة إلى أسباب أخرى عَجَّلت تنفيذ قرار الهجرة، ذلك أنّ اجتهادات شيخنا لم تكن لتروق حتى لأتباعه في بعض الأحوال، نظراً لقوة مواقفه وشدَّتها على النفوس، فالحقّ لا يترك لك صاحباً ولا صديقاً.

فكان الشيخ حفظه الله في هذه المدّة كثير الانعزال، حتى عن بعض أتباعه ومريديه ومدرسته، بعدما بنى داراً له صغيرة بمرشان، بعيدة بعض الشيء عن المقرِّ الأول للفقراء، فكان تلامذته يلاحقونه في بيته للأخذ عنه، وإتمام دروسه وجلساته.

كتب الشيخ هذه الورقة في تاريخ مضى وولّى، ولقد ختم بعده العديد من الكتب الأخرى القيّمة.

٤٤ ـ مقروءاتي على شيخنا سيدي عبد الله التليدي:

ومن الكتب التي قرأتها وختمتها مع الشيخ جزاه الله خيراً: (سنن

---

(١) وقد اعتمر الشيخ في رمضان هذا العام ١٤٢٣ وحجّ أيضاً، ولقيه طائفة من أهل العلم واستجازوه، وهذه الحجة هي الخامسة والعشرون لشيخنا أمدّ الله في عمره ونفع بعلمه.

الدارمي)، و(الأدب المفرد) للبخاري، و(مسند الإمام أحمد)، و(مقدمة ابن الصلاح) في مصطلح الحديث، و(مناهل العرفان في علوم القرآن) للزرقاني، و(جوهرة التوحيد) في العقائد، و(الرسالة القشيرية) في علم التصوّف، و(شرح نونية الششتري)، و(شرح خمرية ابن الفارض)، وشرح قصيدة (يا مَنْ تعاظم) كلها لابن عجيبة رحمه الله، وكلها بمدينة طنجة، و(الشمائل المحمدية) للإمام الترمذي، و(عمدة الأحكام) للمقدسي إلى زكاة الفطر، و(إتحاف أهل الوفا بتهذيب الشفا) للقاضي عياض، و(تهذيب الخصائص النبوية الكبرى) للإمام السيوطي، و(دلائل التوحيد)، و(بداية الوصول بلب صحيح الأمهات والأصول)، وكلُّها لشيخنا حفظه الله، و(نخبة الفكر في مصطلح الحديث) لابن حجر، و(نور العيون في تلخيص سيرة الأمين المأمون) لابن سيِّد الناس، و(النظم المتناثر من الحديث المتواتر) للشريف سيدي محمد بن جعفر الكتّاني إلى كتاب الجهاد، وذلك في الحرمين الشريفين.

هذا بالإضافة إلى آخر كُلٍّ من (صحيح مسلم)، و(سنن ابن ماجَهْ)، و(تهذيب سنن الترمذي)، وأول (صحيح البخاري) إلى كتاب المغازي، و(زاد المعاد في هدي خير العباد) إلى فصل في علاج البثرة من كتاب الطب، وآخر (تدريب الراوي)، وطرف من (ورقات إمام الحرمين) في أصول الفقه، وكتاب العلم من (إحياء علوم الدين)، وأجزاء من (بداية المجتهد ونهاية المقتصد)، و(سبل السلام) إلى باب الرضاع، وآخر (رسالة ابن أبي زيد القيرواني) في الفقه المالكي، والجزء الأول من (جواهر البحار) لشيخنا، وغيرها من الكتب الأخرى، كما حضرت الختم المبارك لتفسير الجلالين الذي دامت دروسه سبع سنوات، وذلك في ١٩ صفر من عام ١٤٢١هـ.

وممَّن حضر هذا الختم المبارك من غير أن يخبر بزمنه وميقاته،

وإنما جاء زائراً لسيدي عبد الله، الفقير الصادق المعمَّر سيدي محمد الزوَّاق رعاه الله، الذي يعدُّ من تلامذة الشيخ سيدي محمد بن الصدِّيق وابنه سيدي أحمد رحمهم الله جميعاً.

ومن الطلبة المحظوظين بشرف دراسة الكتب التسعة على شيخنا سيدي عبد الله: الفقيه الأصولي الشريف سيدي عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن الشيخ سيدي عبد الله العلوي الهاشمي الكابولي[1].

---

(١) ولد صديقنا الفقيه سيدي عبد اللطيف سنة ١٣٨٦هـ الموافق ١٩٦٦م بزاوية جده الآخذ عن الشيخ سيدي زوين رحمه الله، درس على أخيه سيدي حسن الهاشمي، مبادئ التجويد، وصحيح البخاري، وبعض كتب الفقه، وعلى الفقيه سيدي عبد المعطي أبي السباع، ثم انتقل إلى سوس، فدرس على أشهر تلاميذ الشيخ الحاج الحبيب رحمه الله، ومن سوس إلى دُكّالة بزاوية أولاد بن شاوي ثم إلى تطوان، حيث درس على الشيخ محمد بوخبزة، وقرأ على الفقيه سيدي محمد بن تاويت، وعلى الفقيه سيدي محمد الكِركيش، ولازم محاضرات المحدّث سيدي إبراهيم بن الصدّيق رحمه الله تعالى في مصطلح الحديث بكلية الأصول، وقرأ أيضاً على الفقيه العَرْبي اللُّوْه. انتقل بعد ذلك إلى طنجة سنة ١٤٠٩هـ الموافق ١٩٨٩م حيث وجد الشيخ المحدِّث الأصولي سيدي عبد الله بن الصدّيق، فدرس عليه تفسير النسفي، وسنن الترمذي، إلى أن توفي رحمه الله سنة ١٩٩٣م، وقرأ على الأصولي سيدي عبد الحي بمنزله ورقات إمام الحرمين وبعض الكتب الأخرى، وعلى المحدّث سيدي عبد العزيز بن الصدِّيق المصطلح، وبداية المجتهد لابن رشد، وكان في هذه المدة وبعدها مقيماً بالزاوية التليدية بمرشان حيث شيخنا سيدي عبد الله التليدي حفظه الله، فدرس على شيخنا كتباً عديدة أطلّت بذكرها في (أنيس دربي).. أصبح صديقنا الفقيه سيدي عبد اللطيف نائباً في بعض الأحوال عن شيخنا في الخطبة والتدريس، فقد درس بالزاوية التليدية العديد من الكتب في مختلف العلوم الإسلامية.. وهو الآن مقيم بزاوية شيخنا منذ أزيد من اثني عشر عاماً، وله تقييدات مهمة في علوم مختلفة، خاصة في الأصول والبلاغة والمصطلح والتجويد.

٤٥ ـ المعارك العلمية:

أما علمياً فقد شهدت مدينة طنجة في الفترة ما بعد الاستقلال معركة علمية بين شيخنا سيدي عبد الله، والشيخ الزمزمي رحمه الله، ظهر أثرها على مستوى الأتباع، وكادت الأرواح في بعض الحالات أن تُزهق لولا لطف الله تعالى بعباده، وما ذلك إلا للتعصُّب الذي انتقل من مُقَلِّدة المالكية إلى مُقَلِّدة الدعاة والعلماء في المغرب.

تبدأ المعركة بتلميحات هنا وهناك في مؤلف صغير يؤلّفه بعضهم تحت عنوان ملؤه الشتم والسبّ لكلّ من خالف رأيه ومذهبه، ثم يقع الإصدار الجديد بيد المخالف، فيجنِّد قلمه للردّ على المسألة الجزئية في كتاب يسعى لطبعه ونشره بكلٍّ ما أُوتيه من مال وجهد، فيقف كل فريق وراء كتاب صاحبهم وعالمهم، لتنطلق شرارات القول الساقط والهجو السخيف من كلا الفريقين، يضيع من خلالهما الحق الذي كان ديدن الدعاة المؤلّفين.

٤٦ ـ منهج الشيخ في مؤلّفاته:

تنبَّه شيخنا لخطورة هذا المَسْلك وضرره الكبير على تربية التلاميذ والناشئة، فعدل عنه مكتفياً في دروسه ببيان الأرجح من الآراء التي اشتدّ الخلاف فيها بين الفقهاء والعلماء.

ويلاحظ ذلك في موضوعات كتابات شيخنا، حيث لا نكاد نجد من رسائل الردود إلا النزر القليل، بينما **اتَّجه القلم التليدي للكتابة فيما ينفع العقل المسلم العربي من إرشادات قرآنية وهدي نبوي، وإذا ما انتقد فينتقد الظاهرة دون تعيين لأصحابها والمتلبسين بها.**

٤٧ ـ متابعة التحصيل:

وبالرغم من مضيٍّ زمن بعيد على طلبه للعلوم، فإن عزم الشباب ما

زال يتوثَّب من جسد شيخنا، فكان يقرأ إلى فترة متقدمة الفلك والتوقيت على المرحوم العلامة الرباني سيدي المختار الحسّاني[1] مستضيفاً إياه في كلِّ حلقة من حلقات الدرس في منزله بمرشان.

ويعدُّ هذا العالم المغمور هو وأخوه سيدي محمد الحسَّاني من كبار الصالحين الذين افتقدهم عصرنا الحديث، فقد أخبر سيدي محمد بن الصدِّيق رحمه الله أباهم الذي كان من تلامذته أنه سيولد له رجلان من فحول العلماء، فكان الأمر كذلك بفضل الله.

ويحكي شيخنا حفظه الله في (المنح الإلـٰهية بالمبشّرات التليدية) عن رؤيا لسيدي المختار الحسَّاني: رأى كأنَّه جالسٌ بدكّانه فمرَّ أمامه رجل، فقيل له: هذا رسول الله ﷺ مارٌّ، فلمَّا خرج، ونظر إليه وجده على صورة شيخنا، فقال: سبحان الله إنَّ رسول الله ﷺ يمشي بين الناس علانية ولا يراه أحد[2].

---

(١) هو العلاّمة الفقيه الصالح سيدي المختار الحسَّاني، أصله من مدشر حسَّاتة من قبيلة أنجرة، ولما بلغ سن الإدراك أدخله والده الكتّاب، وكان من الفقهاء الصالحين، الذين صحبوا الشيخ الربّاني سيدي محمد بن الصدّيق رحمه الله، ولما فرغ من حفظ القرآن الكريم شرع في قراءة العلم وحفظ متونه، فقرأ الآجرومية والألفية وابن عاشر والرسالة لابن أبي زيد، ووجَّه عنايةً خاصةً لعلم القراءات، فقرأ الشاطبية وأتقن علم الفلك والتنجيم، وكانت له معرفة كبيرة بعلم الأوفاق وأسرار الحروف، لم يُكتب له السفر إلى فاس للقاء علماء القرويين، ولما انتهى من الأخذ عن شيوخ بلدته، رحل إلى مدينة طنجة واستقرّ بها مشتغلاً بما يعنيه من عبادة وزهادة وقراءة للقرآن، كان رحمه الله آية في الأخلاق والسمت الحسن، أمارات الصلاح بادية على وجهه، لا يفتر عن ذكر الله عزّ وجلّ، والصلاة على رسول الله ﷺ إلى أن توفّاه الله تعالى حوالي ١٤٠٨هـ، ودفن بمقبرة مرشان رحمه الله تعالى.

(٢) المنح الإلـٰهية، ص١٣.

ومن المشايخ الربّانيين الذين تتلمذوا لسيدي أحمد بن الصدِّيق، ثم استمرّت الصلة بينهم وبين شيخنا حفظه الله: العارف بالله والمرابط بالمدرسة التليدية في السنوات الأخيرة من عمره إلى أن توفّاه الله فيها سيدي أبو علي الحسن[1] بن أحمد الشركي الأنجري الطنجي رحمه الله.

وقد شرَّفني الله بمجالسته والانتفاع بصحبته، ورأيته يوماً في المنام يقول لي: انتبه فوالدك وراءك، فالتفتّ فإذا بشيخنا وأستاذنا ومربّينا سيدي عبد الله حفظه الله.

فقصصتها عليه فقال على التوّ: وهل في ذلك شك؟

فالاهتداء إلى الأب الروحي والعالم الربَّاني هو غاية ما يطلبه المريدون لِنَيْل الوراثة المحمدية منهم، والاغتراف من مَعين الصُّحبة والمحبّة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

٤٨ ـ سجنه مع عدد من الشُّرفاء بسبب اتّباع السنّة النبويّة:

وقد لقي الشيخ حفظه الله مضايقات كثيرة تعسُّفية، وامتحن لذلك في الله، وسجن مع عدد من الشرفاء والفقراء والصدّيقيين **بسبب أمره بالسنّة النبويّة، ونبذ أنواع التقليد واتّباع الهوى**، كان ذلك في عيد الفطر من عام ١٣٩٩هـ، إذ أفطر شيخنا رفقة عدد من مريديه بشكل علني مع

---

(١) هو أحد أوتاد المدرسة الصدّيقية ثم التليدية.. ظلّ مرابطاً في مدرسة مرشان آخر سنوات حياته حتى لبّى داعي ربّه عن سنّ يفوق التسعين سنة. وهو من علماء المدينة وفقهائها، قرأ على الشيخ سيدي أحمد بن الصدّيق وغيره من أقطاب العلم والدين، وكان في فترةٍ إماماً للصلوات بجامع بوعرّاقية، وهو يجيد فنوناً متعددةً، شاعر مجيد ترك بصماته في شعر المديح وقصائد الرحلة ما سيخلد اسمه في تاريخ شعراء مدينة طنجة. ترك لنا مخطوطاً له تحت عنوان: (الحلل الودية في المآثر الصديقية)، حافل بتاريخ هذه الأسرة العلمية العريقة.

دول عربية إسلامية دون المغرب، ممّا أثار حفيظة المسؤولين المتعصّبين الذين لم يتوانوا لحظة في اعتقال شيخنا واتّهامه بالخيانة والإخلال بالأمن العام.

وقبل ذلك في آخر رمضان ذلك العام، ولما كان شيخنا مسافراً بمدينة تطوان، رأى في المنام رسول الله ﷺ مع عدد من الفقراء، فإذا بأحدهم يسأل شيخنا عن صلاة الضحى، فاستحيا الشيخ من الإجابة عن السؤال، بحضرة النبيِّ سيدنا محمد ﷺ، فسأل بنفسه رسول الله ﷺ قائلاً: صلاتك بعد فتح مكة أربع ركعات أكانت شكراً لله عزَّ وجلّ؟ فأجاب النبيّ ﷺ: نعم...

فكانت الرؤيا إشارة لأمر الفتوى وخطورتها، فالتقدُّم بين يدي رسول الله ﷺ أمرٌ جَلَل وخطير، ولذلك عَدَل شيخنا عن إجابة السائل طارحاً بنفسه نفس المسألة على سيدنا رسول الله ﷺ.

وفي صباح ذلك اليوم خطر ببال شيخنا العودة إلى مدينة طنجة، ليجد في انتظاره شرطيين سريين، ليسألاه عن اتِّصاله بالحركات السياسية الإسلامية في العالم وخاصّة بحركة إمام الشيعة الراحل الخُميني، كما سألاه عن سبب إفطاره دون توقيت المغاربة، فطرح شيخنا بدون تردُّد وجهة نظره واجتهاده في المسألة مبيّناً ضرورة توحيد الصيام والإفطار على مستوى العالم أجمع.. فشذوذ المغرب عن الإفطار مع جمهور المسلمين أوْلَى بالانتقاد من شذوذ شيخنا عن الإفطار مع دولة المغرب.

كان الإفطار مع جمهور الدول العربية والإسلامية السبب الذي تشبَّثت به السلطات المغربية لاعتقال شيخنا سيدي عبد الله أولاً، ثم اعتقال من كان له اتصال مباشر به من الأشراف الصِّدِّيقيين والعلماء الربّانيين، فكان ممّن سجن مع الشيخ حفظه الله الأخوان الشريفان العلاّمة

سيدي عبد الله، والعلاّمة سيدي عبد العزيز ابنا محمد بن الصدِّيق، والحاج سيدي المكي الأصيلي المعروف بالزيلاشي، والعلاّمة سيدي المختار الحسَّاني، والمقرئ سيدي عبد الرحمن المغوغي، والولي المجذوب سيدي محمد البقالي الهسكوري، بالإضافة إلى الفقيرين سيدي الحمادي التمسماني، وسيدي عبد القادر الخمسي، وثلاثة من شباب الزاوية آنذاك.

أُدخل السادة الأفاضل سجن مركز الشرطة، فباتوا ليلة واحدة بالقرب من زنزانة السكارى وقُطَّاع الطريق، لكأنَّ هؤلاء من صنف أولئك والعياذ بالله، وفي الصباح وبعد صلاة الصبح مباشرة افتتح شيخنا سيدي عبد الله الوظيفة الصِّدِّيقية ليقرأها الجميع بصوت واحد، واستنارت بها الطبقة السفلى للسجن المظلم.

وبينما كان الشيخ مع المجموعة المعتقلة في بهو بناية المحكمة الابتدائية، إذا بالولي المجذوب سيدي محمد البقالي الهسكوري يُخبر شيخنا بمكاشفة مضمونها أنّ مدّة قليلة في السجن سيقضيها الجميع لا محالة.

بعد ذلك نقل الشيخ والكوكبة الصِّدِّيقية إلى سجن آخر، ظلُّوا فيه معتقلين خمسة عشر يوماً ما بين ذكر لله عزَّ وجلّ ومذاكرة بين العلماء واستقبال الزائرين المحبّين.

وأثناء المحاكمة التي رافع فيها تسعة من المحامين دفاعاً عن العلماء المعتقلين، أثار أحدهم مسألة اعتقال المسنِّين ومنافاة ذلك لحقوق الإنسان والمعاملة الإنسانية، فأجاب القاضي قائلاً: إنّ الخُميني الذي ثار على نظام الشاه في إيران كان سنّه آنذاك يربو على السبعين.

كان الخوف في هذه الفترة من تجدُّد الثورة في الدول الإسلامية

يملأ قلوب المسؤولين الحكوميين، خاصة عندما تثور من مآذن الجوامع العلمية خطبٌ كالصاعقة على رؤوس الظالمين من الحكّام.

٤٩ ـ حالته الشخصية:

لشيخنا من **الأولاد ثمانية**، ذكور وإناث، ثلاثة من حَفَظَة القرآن الكريم، وأكبرهم من العلماء الباحثين، وهو الشيخ المهدوي الجليل سيدي محمد بن عبد الله التليدي حفظه الله.

ولشيخنا **أربعة إخوة**، ووالداه توفيا منذ تسع وثلاثين سنة، توفي أولاً والده سنة ١٣٨٣هـ، ثم والدته سنة ١٣٨٥هـ.

زوجته: أما زوجة شيخنا فهي الشريفة العفيفة الطاهرة السيدة (لَلاّ)عَائشة[١] اليدرية حفظها الله.. تزوّجها شيخنا ويده فارغة لا مال ولا أثاث ولا فراش، بل ولا سكن، فكان في بداية زواجه منها يعمل خياطاً يتقاضى درهمين في مقابل كل جلابية يخيطها.. فرضيت به زوجاً، وقامت بمساعدته ورعايته أحسن ما تكون مساعدة ورعاية الحبيب لحبيبه أحسن الله إليها وأثابها خيراً.

٥٠ ـ طلبته ودروسه ومجالسه:

ولشيخنا من الطلبة حالياً نحو من سبعين طالباً يسكنون في الزاوية بالإضافة إلى الطلبة الطنجيين، وهو على هذه الحالة منذ أربعين سنة لتاريخه ١٤٢٣هـ، وليس له راتب يتقاضاه من أحد، وإنما يعيش على ما يفتح الله تعالى به من فضله.

ودروسه أيام السبت والأحد والإثنين والثلاثاء تبدأ في الثامنة

---

(١) (للاّ): لقب مغربي للمرأة الشريفة المنسوبة لآل البيت الأطهار.

صباحاً ساعة واحدة تقريباً، ثم قبيل الظهر بنصف ساعة، ثم بعد العصر نحو ساعة، ثم بين العشاءين بعد تلاوة الطلبة لحزب من القرآن الكريم.

أما يوما الأربعاء والخميس فيتقصر شيخنا ساعة واحدة في الصباح بعد الساعة الثامنة، وفي يوم الجمعة يستمتع الطلبة والفقراء والمريدون بخطبة شيخنا الشيّقة، ثم بعد العصر عادةً ما يخصِّص حفظه الله مع طلبته درساً في السلوك والأخلاق.

أما نوعية مجالسه فثلاثة:

١ ـ **مجلس الإقراء لأصول الحديث**: يقوم فيها بسرد وقراءة الكتب الحديثية المشهورة كالكتب التسعة واقفاً عند كلِّ حديث، ليستنبط منه فوائد فقهية وعلمية وأصولية، وإذا كان في السند من تكلَّم فيه أشار إليه مع بيان درجة الحديث من جهة الصحة والضعف والقبول والردّ. وكثيراً ما يقف عند غريب الألفاظ ودقيق المعاني النبويّة وجوامع كلمه ﷺ مع التنبيه على الناسخ والمنسوخ، والخاص والعام، والمطلق والمقيّد. وفي بعض الأحيان يتوقّف عند شخصية عظيمة من رجال السند ليذكر مناقبه وسيرة حياته وبعضاً من قصصه وحكاياته.

٢ ـ **مجلس مدارسة للعلوم المختلفة**: يجلس فيها الشيخ حفظه الله ليستمع إلى أحد طلبته يقرأ من كتاب له أو لأحد العلماء البارزين في أحد العلوم الشرعية، وكلما انتهى الطالب من قراءة فقرة من فقرات الكتاب، يقوم شيخنا بشرح ما سمعه الحاضرون بأسلوب سهل، وبعبارات ميسّرة، مع تنبيهه للأخطاء العلمية أو التي وقع فيها مؤلّف الكتاب سواء كانت أخطاء في تأدية المعنى والتعبير أو في ترجيح الآراء وإقامة الأدلة...

ويتتبع الطلبة في كلا المجلسين كلام الشيخ كاتبين جُلَّ تحقيقاته حفظه الله على حواشي نسخهم من الكتب المدروسة.

وهكذا يكون مع الطالب بعد دراسة مؤلَّف من المؤلفات المراجع، فهم مضمون الكتاب المدروس، وبيانٌ تامٌّ لحلّ الإشكالات التي أغفلها صاحبه، ومختلف التعليقات والتحقيقات التليدية النفيسة في علم من علوم ديننا الحنيف.

٣ ـ **والمجلس الثالث عفوي**، يأتي غالباً دُبُرَ الصلوات الخمس، وخاصّة بعد صلاة العصر، يستمع فيه الطلبة لفائدة فقهية جليلة أو قصة غريبة أو موعظة مؤثّرة، وكثيراً ما يأتي ذلك عقب سؤال يطرحه أحد الطلبة على شيخنا حفظه الله ليجيب عنه بما يفتح الله عليه من مواهب ومعارف.

فإذا لمس المُتَتَبِّع لكتب شيخنا قلّتها بالمقارنة مع أقرانه من المحدِّثين المعاصرين، فذلك لسبب أساسي هو التدريس الذي يشغل قسطاً وافراً من وقت سيدي عبد الله جزاه الله عنّا وعن الإسلام خير الجزاء.

٥١ ـ موقفه من المدارس العصرية والمنتديات العامة:

كما أنّ شيخنا حفظه الله لم يُدخل أحداً من أولاده المدرسة العصرية لفساد أهلها عقائد وأخلاقاً وأفكاراً، بل كتب في بدايته مع الحافظ سيدي أحمد بن الصدِّيق رسالة في ذلك سمّاها له شيخه سيدي أحمد (إرسال القنابل الذرية على المدارس العصرية).

بل إنّه يرفض الدخول في المنتديات العامة، وبنايات الإدارة إلا لحاجة ملحَّة، لما يراه من اختلاط الرجال بالنساء، وشيوع الفواحش من الكلام الساقط والحركات الماجنة.

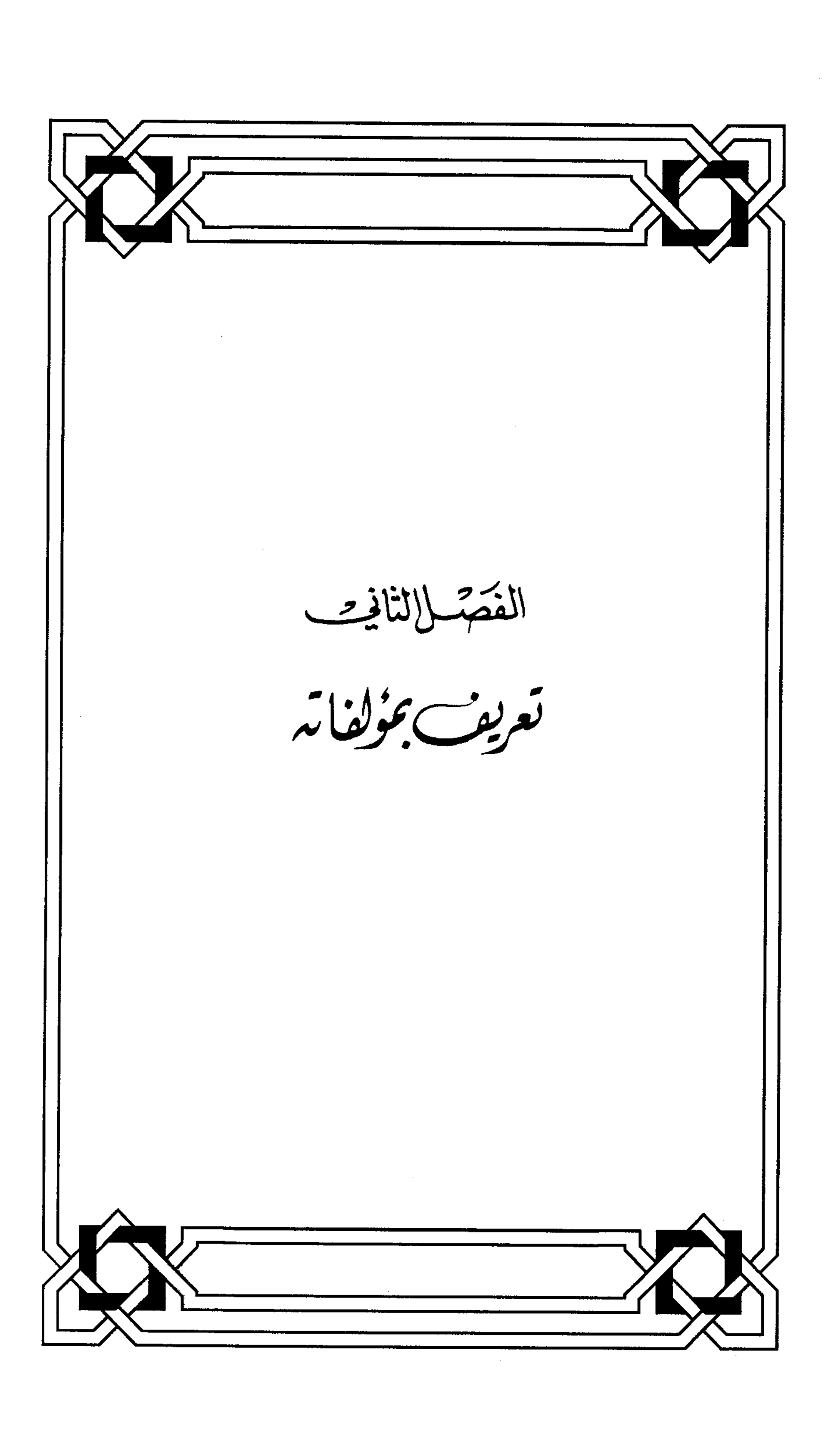
وكثيراً ما استأذنتُ شيخنا لبعض زوّاره من الطبقة المثقّفة يدعونه إلى محاضرة هنا أو هناك، فيتعلّل الشيخ حفظه الله بعلل يمتنع بها عن المشاركة في أعمال تبدو لأول وهلة أعمال خير وبر، فإذا هي مساهمة في الإثم وتعاون على نشره.

٥٢ ـ امتناعه عن الكتابة في الجرائد:

ومن ذلك رفضه الكتابة في الجرائد لما في هذا النوع من المنشورات من كثرة القيل والقال، بالإضافة إلى ضروب من الغيبة والنميمة والتشهير تتنافى وأخلاق الصحافة والمهنة، ويرى شيخنا تحريم الكتابة في الجرائد والصحف العامـة، لأن مآلها الامتهان والقمامة، ولا تخلو من آيـة أو حديث أو اسم الله تعالى، وامتهان ذلك كفر وردّة عند العلماء. وكم يتمنَّى لو يقوم بعض الدعاة والمتبرّعين بإنشاء مجلّة محلّية دعويـة وفكريـة متخصّصة ومستقلة لتسنح له الفرصة للكتابة دورياً أو شهرياً وَفْق ما يفتح الله عليه من الوقت والجهد.

وهو عزوفٌ عن الدنيا، مُعْرِضٌ عنها وعن أهلها، منقطعٌ في بيته ومسجده، مشتغلٌ بما يهمُّه، أوقاته عامرة ما بين قراءة ودراسة وتأليف وعبادة، لا تراه خارجَ بيته إلا لحاجةٍ أكيدة.. وكم من حاجةٍ يريد قضاءها خارج بيته، فينبري أحد طلبته لمساعدته، فيعدل عن الخروج.

* * *



الفصل الثاني

تعريف بمؤلفاته



الفَصل الثاني

تعريف بمؤلفاته

تمهيد:

التأليف عند شيخنا يأخذ قسطاً ليس بالوافر من يومه وليلته، ذلك لأن شيخنا وإن صار محدِّثاً مشهوراً بكتبه ومؤلّفاته في المشرق العربي، فإنَّ شهرته في المغرب أكثر، بتدريسه للطلبة داخل مدرسته، وتعهُّده اليومي لتكوينهم وتحصيلهم لعلوم الحديث، مع حرصه على إسماعهم أمّهات الحديث وأصوله.

ويحاول عددٌ من طلبته مساعدته في التدريس، حتى يتفرّغ هو للكتابة، إلا أن عادة التدريس قد استحكمت في برنامجه الحياتي العامّ، فلا يمرّ شهر دون أن يفتتح كتاباً مع طلبته للمطالعة والمدارسة.

وكم من كتاب يعزم على تأليفه ويكتب فيه مخطَّطاً للبحث فيه والتحرير، فيترك ذلك إلى أن يفتح الله عليه بالوقت والبركة فيه.. ومن ذلك تلك الموسوعة التي عزم على استخراجها من كتب التاريخ والتراجم في مختلف العلوم والفنون، وكذا الشروع في قسم المعاملات لكلٍّ من (إتمام المنّة)، و(بداية الوصول)، إلى غير ذلك من المؤلَّفات التي يتمنَّاها طلبته، وسيستفيد منها قرّاؤه إن شاء الله تعالى.

* * *

ولشيخنا ـ حفظه الله تعالى ـ مع ذلك تآليف كثيرة، وقد عمَّ النفع بها، خاصَّة بعد طباعتها ببيروت، وخرجت في أجمل حلّة وأحسن

إخراج، عن طريق الأخ المحب لشيخنا الأستاذ مجد مكي، الذي عرف الشيخ عن طريق مؤلّفه (أسباب هلاك الأمم)، فاعتنى به وطبعه في دار البشائر الإسلامية، وتتابع اهتمامه بكتب شيخنا، ومازال حريصاً على إخراجها بالمظهر اللائق بها، ونشرها، وتعميم النفع بها، وكتبُ شيخنا أكثرها يدور حول التفسير والحديث والفقه، وأوّل مؤلّفاته المطبوعة (الصارم المبيد) طبع بمصر عام ١٣٨٠هـ، وسأذكر كتبه في القرآن وعلومه، ثم في الحديث وعلومه، والفقه وفنونه، والتاريخ والتراجم، والردود، وأعرِّف بالكتب المخطوطة.

قائمة بكتبه:

وهذه قائمة بالكتب المطبوعة التي سأعرِّف بها من مؤلّفات الشيخ حفظه الله وزاده توفيقاً:

١ ـ دلائل التوحيد انطلاقاً من القرآن والكون.

٢ ـ الجواهر واللآلئ المصنوعة في التفسير بالأحاديث الصحيحة المرفوعة.

٣ ـ أسباب هلاك الأمم وسنّة الله في القوم المجرمين والمنحرفين.

٤ ـ تهذيب سنن الترمذي.

٥ ـ تهذيب الخصائص النبوية الكبرى، للسيوطي.

٦ ـ إتحاف أهل الوفا بتهذيب كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى، للقاضي عياض.

٧ ـ تهذيب وتحقيق الاستنفار لغزو التشبه بالكفار، للحافظ سيدي أحمد بن الصدّيق.

٨ ـ جواهر البحار في الأحاديث الصحيحة القِصَار .

٩ ـ بداية الوصول بلب صحيح الأمهات والأصول (القسم الأول) .

١٠ ـ الأنوار الباهرة بفضائل أهل البيت النبوي والذرية الطاهرة .

١١ ـ فضائل الصحابة والدفاع عن كرامتهم وبيان خطر مبغضيهم والطاعنين فيهم .

١٢ ـ بزوغ القمر بوجوب تقصير الصلاة في السفر .

١٣ ـ منهاج الجنة في فقه السنّة .

١٤ ـ إتمام المنّة بشرح منهاج الجنّة في فقه السنّة .

١٥ ـ تعليقات على الأخبار المسطورة في القراءة في الصلاة ببعض السورة ، للحافظ سيدي أحمد بن الصدّيق رحمه الله .

١٦ ـ نصب الموائد لذكر الفتاوى والنوادر والفوائد . في جزأين .

١٧ ـ تعليقات على كتاب (تحفة الإخوان في آداب أهل العرفان) ، للعارف بالله سيدي أحمد الدردير رحمه الله .

١٨ ـ معجزة مع كرامة ، في كتاب (الشرف المحتَّم للحافظ السيوطي) .

١٩ ـ زاد المتقين في صحيح أذكار وأدعية سيد المرسلين .

٢٠ ـ مشاهد الموت وأهوال البرزخ والقبور .

٢١ ـ الفوائد والعبر من عجائب الأقدمين .

٢٢ ـ المرأة المتبرّجة وأثرها السيِّئ في الأمّة .

٢٣ ـ القدس الشريف وكيف احتلّه الصهاينة .

٢٤ ـ حياة سيدي أحمد بن الصدّيق .

٢٥ ـ المنح الإلـهية بالمبشّرات التليدية .

٢٦ ـ تحفة القاري بذكر بعض كرامات ومبشّرات سيدي أحمد بن الصدّيق الغماري .

٢٧ ـ درُّ الغمام الرقيق برسائل الشيخ السيد أحمد بن الصدّيق .

٢٨ ـ المبشَّرون بالجنّة .

١٩ ـ المطرب بمشاهير أولياء المغرب .

٣٠ ـ الصارم المبيد لما زعمه المبتدع العنيد من الضلالات في شرح كلمة التوحيد .

٣١ ـ درء الفساد بالانتصار لأهل السنّة وفَرْي أوداج أهل البدعة : ماذا بتطوان؟ .

٣٢ ـ نشر الأعلام ببيان جهل من أنكر رؤية الله في المنام .

٣٣ ـ القول الممجّد في الدفاع عن كرامة سيدنا أحمد .

٣٤ ـ إتحاف المسلم بزوائد أبي عيسى الترمذي على البخاري ومسلم .

٣٥ ـ الرائد بمفتاح أحاديث الزوائد .

٣٦ ـ البراهين السامية في عقيدة الفرقة الناجية .

٣٧ ـ أهل السنّة والشيعة بين الاعتدال والغلوّ .

* * *

وأعرّف الآن بكتب هذه القائمة التي اخترتها من مؤلَّفات سيدي الشيخ .

أولاً:

من كتبه المتعلِّقة بالتفسير وعلوم القرآن

١ ـ دلائل التوحيد انطلاقاً من القرآن والكون:

مجلّد ضخم، طُبع بدار ابن حزم ببيروت عام ١٤٢٠هـ.

اشتهر لدى المحدّثين كتبٌ في (دلائل النبوة)، لكننا لا نكاد نجد مؤلَّفاً واحداً في دلائل التوحيد، الذي هو الأصل والأساس.. فجاء كتاب شيخنا هذا ليتمِّم فراغاً في المكتبة الإسلامية، علماً بأنَّ شيخنا أفرد فيه زهاء سبعمئة آية بالشرح، خاصّة في دلائل التوحيد وأماراته.

وهو بحثٌ في غاية الأهمية، خاصَّةً بالنسبة للدعاة إلى الله عزَّ وجلّ.

يقول شيخنا في المقدّمة: «ولما كان كتابنا الكريم هو ديننا وطريق سعادتنا، وقد تكفَّل بالدعوة إلى توحيد الله والاعتراف بوجوده في أكثر من ثلثه، معزّزاً ذلك بدلائل وجوده في هذا الكون الفسيح ذلك الكتاب المنظور، ارتأيت أن أجمع كل ما فيه من آية تدلّ على وجوده وتوحيده والتعرّف عليه، وعلى عظيم قدرته وكمال تصرُّفه، وأن أشرحها شرحاً مبسَّطاً، لتكون مرجعاً للمؤمن يثبِّت بها إيمانه ويقوّي بها دينه...»[١].

ولقد أكرمني الله بقراءة هذا الكتاب على شيخنا حفظه الله مدة إقامتنا بمكة المكرمة في عُمْرة عام ١٤٢٢هـ، ولمست من قريبٍ بركةَ الدلالة على الله من خلال هذا الكتاب القيّم، ولله الحمد والمنّة.

---

(١) دلائل التوحيد، ص٧.

والحادثة الطريفة التي شدَّتني في تلك الزيارة المباركة والعمرة الميمونة، الحوار الذي جرى بيني وبين شيخي أمام الكعبة المشرّفة، حول قضية دوران الأرض حول الشمس التي نفاها شيخنا مطلقاً في كتابه (دلائل التوحيد) حيث يقول في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٨]. . وقد أبعد النجعة من استدلّ بالآية على تحرُّك الأرض وسَيْرها، فإنَّ هذه وإن كانت نظرية محتملة، فالآية الكريمة لا علاقة لها بذلك، فإنَّ سياقها وأولها وآخرها يدلُّ على أنه عند القيامة، ويرد هذا التفسير البدعي.

فأبطل هذا (الظن) الذي لم يعتبره يوماً راقياً إلى مستوى اليقين والثبوت.

وكنت يومها ولا زلت متوقّفاً في المسألة وناظراً في الرأي الآخر الذي ذهب إليه أكثر علماء الأمة المعاصرين، وأغلب مفكّريها المقتدرين، فإذا بنوع صِدَام يحدث بين التلميذ وشيخه، فوجئنا به معاً ليأمرني الشيخ إثر ذلك النقاش المحموم بالتوقف عن المجادلة احتراماً لبيت الله الحرام، وتوقيراً لقبلة التوحيد والسلام.

ولعلّ البعض المتهالك فكره يعتبر مثل هذا الاختلاف في الرؤية والنظر عقوقاً للأب الروحي الذي من المفترض ـ كما هو الواقع ـ أن يكون أعلمنا بكتاب الله، وأوعانا لسنّة رسول الله ﷺ.

وإنما هو النقاش العلمي الهادئ الملتزم ميدان المتسابقين إلى معرفة الحقّ في كلِّ شيء، بناءً على القاعدة العلمية المتينة القائلة: «**كلّ أحد يؤخذ كلامه ويُردّ إلاّ أعظم البشرية شأناً وأزكاها حالاً ومقاماً سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام**».

وممّا شرعتُ في الإعداد له بعد طبع هذا الكتاب ذيل كبير عليه

سأبين من خلاله إن شاء الله بالتفصيل تلك المعجزات العلمية القرآنية الكثيرة التي أوقفت علماء الذرّة والفلك والحيوان والطبّ عن التِّيه، وردّتهم إلى توحيد الخالق عزَّ وجلّ واعتقاد وجوده وتدبيره وتربيته للعالمين.. وهو الموضوع الذي أشار إليه شيخنا بقوله في المقدّمة: «... إلى غير ذلك من الحقائق التي أشار إليها القرآن الكريم وجاءت الاكتشافات الحديثة بتصديقها.. ولعلّنا نجمعها مع الآيات الدالَّة عليها في مؤلَّف خاص إن شاء الله».

٢ ـ الجواهر واللآلئ المصنوعة في التفسير بالأحاديث الصحيحة المرفوعة:

صدر عن دار البشائر الإسلامية ببيروت، وهو من أهمِّ المشاريع الكتابية التي اهتمَّ بها العديد من المحدّثين المعاصرين كالشيخ أبي الفضل سيدي عبد الله بن الصدّيق رحمه الله تعالى.

يقول شيخنا في مقدمة كتابه:

«وكان عملي في هذا الكتاب بتوفيق الله تعالى وعونه النقاط الآتية:

أولاً: أَذكر السورة باسمها ونوعها مكية أو مدنية، ثم عدد آياتها، ثم ما احتوت عليه من المقاصد على سبيل الإجمال.

ثانياً: أُورد ما اختصَّت به كل سورة عن غيرها من العلوم والأحكام والأخلاق والعقائد والقصص والحِكَم والأسرار وما إلى ذلك، وبالرجوع إلى أقرب سورة يعرف القارئ ذلك. وهذا شيء لم أُسبق إليه بحمد الله تعالى فيما أعلم، فينبغي أن يضمَّ إلى أنواع علوم القرآن.

ثالثاً: ذكر الأحاديث المتعلّقة بالسورة أو الآية أو الكلمة، ويشمل ذلك أحاديث أسباب النزول وهي كثيرة، والناسخ والمنسوخ وهي قليلة،

والأحاديث الشارحة لبعض الآيات أو الكلمات أو بيان لحقائق شرعية وأحاديث جاء فيها استشهاد النبيّ ﷺ بآيات. . وأحاديث فضائل السور والآيات، وذكر السور التي كان يقرأ بها في صلاته، وأحاديث سجدات القرآن، إلى غير ذلك مما أورده مفسّرو السلف الذين استقيت من كتبهم واقتفيتُ أثرهم.

رابعاً: قد أذكر أحياناً تفاسير بعض الصحابة الموقوفة، وخاصة ما جاء عن الإمام علي وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، وهي قليلة.

خامساً: وهو ما خصَّ الله به الكتاب والحمد لله لا أورد إلا ما كان صحيحاً أو حسناً أو ما يقاربه من الضعيف الخفيف؛ كأحاديث ليث بن أبي سليم، وعطاء بن السائب، وعبد الله بن لهيعة، وابن إسحاق مع عنعنته ونحوهم، وهي أيضاً قليلة.

سادساً: شرحتُ الأحاديث الواردة في الكتاب مع الآيات، مع ذكر فوائد وفرائد وتحقيقات لبعض ما اختلف فيه.

سابعاً: ذكرتُ من الآيات المشروحة نحواً من ثمانمئة وثلاثين آية.

ثامناً: ذكرتُ من الخصائص التي استخرجتها من السور نحواً من سبعمائة ونيف خصيصة.

تاسعاً: أوردتُ من الأحاديث ألفاً وثلاثمئة وسبعاً وثلاثين حديثاً تشمل أغلب الموضوعات الإسلامية. .

عاشراً: رتَّبتُ الأحاديث حسب الموضوعات، مرتّبة على الكتب والأبواب مع مفتاح لأطراف الأحاديث، مرتَّبةً على حروف المعجم». اهـ بتصرف من المخطوطة.

وعند تصحيح شيخنا حفظه الله للنسخة التي تحت الطباعة، أطلعني

على فهرست وضعه للأحاديث الواردة في الكتاب، فانتبهت لضرورة إيراد فهرست آخر معه لأحاديث أسباب نزول الآيات، فسألت شيخنا أن يضعه كذلك، فاستجاب جزاه الله خيراً لسؤالي، ورحَّب به، فجاء المشروع، وسيجيء - إن شاء الله - بين يديّ القُرَّاء في غاية من الدقة والتحقيق والإتقان.

٣ - أسباب هلاك الأمم وسنَّة الله في القوم المجرمين والمنحرفين:

رسالة، طُبعت قديماً بالمغرب، ثم بدار البشائر الإسلامية ببيروت عام ١٤١٨هـ.

من الأبحاث المهمَّة التي ألَّفها الشيخ كتابه هذا عن أسباب هلاك الأمم في ضوء القرآن والسنّة، والذي يمكن ترجمة عنوانه: بأسباب الأزمات عند الأمم وانحدارها الحضاري، لكن الشيخ يستخدم المصطلح النبوي: الهلاك، الذي يعبِّر تعبيراً جامعاً عن كلِّ نوع من أنواع الفشل والهزيمة التي مُنِيَت بها أمتنا الإسلامية.

ولقد لقيَ هذا الكتاب قبولاً منقطع النظير خاصَّة لدى أبناء الحركة الإسلامية المعاصرة، بل كان السبب في بحث بعض الأساتذة والعلماء عن شيخنا قَصْد الأخذ عنه والتتلمذ عليه بعد اطّلاعه على كتابه، كما حصل للسيد الفاضل الشيخ الوقور سيدي مجد بن أحمد مكي الحلبي المتخرِّج من جامعة أم القرى بمكة المكرّمة، والحاصل على الماجستير في علوم الحديث رعاه الله ووفقه.

واتَّصل بي أحد الصحفيين[١] الولعين بانتقاد الأحزاب المغربية

---

(١) هو الأستاذ محمد سعيد الشرگي اخناشر.

المتفرنجة، وكان قد ألَّف رسائل في بيان مدى بُعد هؤلاء عن الشباب، وعدم احتكامهم داخلياً للديمقراطية، وأسلوب الانتخاب الحزبي، مع إعراض عن منهاج النبوّة في التربية والتعليم، فناولته هذا الكتاب فأُعجب به، فوعدني بالاستفادة منه وتأليف رسالة منه عنوانها: أسباب هلاك الأحزاب المغربية. وفقه الله لهذا الغرض آمين.

ومثال ذلك حديث: أَنَهْلِك وفينا الصالحون؟ قال ﷺ: «**نعم إذا كثر الخبث**»[1]. فالأحزاب المعاصرة مهما تبجَّحت بوجود بعض الصالحين والفضلاء داخل تنظيماتهم، فإنّ انتشار الخبث السياسي والخبث الاجتماعي والثقافي بين صفوفهم يجعل أمر هلاك أحزابهم أمراً محقّقاً لا ريب فيه.

وكذا حديث ابن مسعود: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لا تختلفوا فإنَّ مَنْ كان قبلَكم اختلفوا فهلكوا**»[2]. فإذا كان مقصود الاختلاف في الحديث هو الاختلاف على السنّة والخروج والانحراف عنها، فإنّ المتتبّع لشأن الأحزاب العربية المعاصرة سيجد ظاهرة رفض السنّة النبويّة متفشّيةً فيها ومنتشرةً بين شبابها حالاً ومقالاً.

وكذا حديث: «**إنَّ هذا الدينار والدرهم أهلكا مَنْ كان قبلكم وهما مهلكاكم**». فالحسّ المادي عند المتحزّبين اليوم أشهر من أن يُذاع ويُذكر، بل إنَّ سياسة الأحزاب العربية المعاصرة تحرص على بقاء الحزب مادياً ولو على حساب مواقفها ومبادئها التاريخية.

* * *

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم ٣٠٩٧ في كتاب أحاديث الأنبياء؛ ومسلم في صحيحه برقم ٥١٢٨ في كتاب الفتن.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم ٣٢٣٣ في كتاب الخصومات.

ثانياً:

من كتبه في الحديث الشريف وعلومه

١ ـ تهذيب سنن الترمذي:

في ثلاث مجلّدات ضخام، طُبع بدار الفكر ببيروت عام ١٤١٥هـ.

قال شيخنا حفظه الله عن تجربته مع هذا الكتاب:

«وقد شاء الله عزَّ وجلّ ـ وله المنّة ـ أن يوفّقني لقراءته، وأنا في عنفوان الشباب، ولم أزل منذ ذلك الوقت شغوفاً به دارساً له ومهتمّاً به. . إلى أن رأيت ـ وذلك عام خمسة وثمانين وثلاثمئة وألف ـ أن أتقرَّب إلى الله بخدمة هذا الكتاب وتحريره وبيان مراتب أحاديثه، وبعد عشر سنوات من العمل المتواصل أحياناً والمتقطع حيناً، تمَّ هذا الإنجاز الحافل، ولستُ أدَّعي فيه الكمال، وإنّما هو أداء لبعض الواجب وقيام ـ هو فرض على أهل العلم ـ بتنقية كتاب الجامع من الموضوعات والأحاديث الضعيفة، وتبيينها لتُعرف». اهـ.

وقال أيضاً: «ولقد شُغفتُ بهذا الجامع العظيم منذ عرفته، ولذلك فقد قدَّر الله لي ـ وله المنّة والفضل ـ أن أقرأه مرَّات متكرّرة، وانتفعتُ به نفعاً جمّاً، وأصبحتُ كالمتخصّص فيه. فلقد قرأته لأول مرة بعد فراغي من الطلب وأنا ابن ستّ وعشرين سنة، وذلك سنة ثلاث وسبعين وثلاثمئة وألف على أستاذنا شيخ الحديث الشريف سيدي عبد العزيز بن الصدّيق، وكان ذلك بقراءة منه علينا مع تحليلات وكلام على معاني الأحاديث وأحكامها، وختمناه في ظرف ستة أشهر والحمد لله، ثم قرأته بعد ذلك على انفراد مرة ثانية وثالثة ورابعة، وفي إحدى قراءاتي له، وأنا في البادية

مصيفاً، رأيتُ رسولَ الله ﷺ في المنام مرّتين في شهر شوال سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة وألف، رأيته في إحداهما كأنني جالس إلى جانبه الأيمن، فتناول قدحاً من لبن الحليب، فشرب منه، ثم ناولنيه فشربتُ سُؤْرَه، فكانت هذه الرؤيا كإذنٍ لي في الاشتغال بالحديث والاقتباس منه، لأن شرب اللبن عند علماء التعبير يدلّ على الفطرة والعلم النافع والدين، وذلك هو الوحي الإلـٰهي من القرآن الكريم، والسنّة النبويـة التي هي شارحة له، وفي خلال قراءاتي للكتاب خطر ببالي تهذيبه واختصاره، فتوكَّلتُ على الله، وشرعتُ في الاشتغال به، لما في ذلك من الفائدة الأكيدة والنفع العميم، وقد كنتُ شَرَعتُ فيه سنةَ خمس وثمانين وثلاثمئة وألف، ولكني لم أكن أواصل السَّيْر فيه كثيراً؛ لكثرة أشغالي، أهمها تدريسي لطلبة العلم العلوم الإسلامية، حتى إنني كنت أنقطع عن الكتابة وأفتر عنها شهوراً وشهوراً، ولم يتح لي السير فيه بسرعة وتوالٍ إلا في السنين الأخيرة من إتمامه»[1].

ومن أهم الفقرات الواردة في المقدّمة تلك التي ذكر فيها شيخنا نماذج من الأحاديث التي وقع فيها وهمٌ لإمامنا أبي عيسى الترمذي رحمه الله. قال الشيخ حفظه الله:

وإتماماً للفائدة ارتأينا أن نشير إلى جملة أحاديث صحَّحها أبو عيسى أو حسَّنها أو ضعَّفها وليست كذلك، وسنقدّم أولاً ما ضعّفه منها وهو صحيح أو حسن، ثم نردف ذلك ثانياً بما صحَّحه أو حسَّنه وهو ضعيف لا جابر له، مع إشارتنا إلى رقم كل حديث جاء في هذا التهذيب. اهـ.

وهذا لا يعني أنّ شيخنا يقلِّل من قَدْر الإمام سيدي أبي عيسى الترمذي رحمه الله، كما ظنَّ ذلك بعض الجهلة وأشباه العلماء، ولكنها

(١) تهذيب سنن الترمذي، ص٦٣.

الأمانة العلمية التي لا تترك لك عاطفة تتستَّر بها على أخطاء أحبَّائك، بل وحتى شيوخك.

ومن الفقرات المهمة في هذه المقدمة كلمة عن صحيح وضعيف الترمذي لناصر الدين الألباني، افتتحها شيخنا بقوله:

«بعد سنوات من الفراغ من هذا التهذيب تزيد على ثلاثَ عَشْرَةَ سنة، ونحن نسعى لطبعه ظهر في عالم المطبوعات: صحيح الترمذي وضعيفه لمؤلِّفهما العلاَّمة المحدّث الشيخ ناصر الدين الألباني الذي يُعتبر من أفراد هذا العصر في علم الحديث النبوي الشريف مع الاطّلاع الواسع والتجلُّد والعمل المتواصل منذ أكثر من نصف قرن، فأمثاله في هذا العصر، والاعتراف بالحق فضيلة، قليلون»[1].

ثم قال: «غير أنّ هذا لا يعني أنّ الشيخ - يقصد الألبانيَّ رحمه الله - فوق الخطأ، فالعصمة للأنبياء فقط، وغيرهم عُرضة للخطأ والزلل. لذلك نرى للشيخ أوهاماً وأخطاءً لا ينبغي التغاضي عنها ولا السكوت عنها، ومن فعل فهو غاشٌّ للمسلمين»[2].

ومن الأحاديث التي ضعّفها الألباني ويصحِّحها شيخنا:

١ ـ حديث جابر: «أنَّ النبيَّ ﷺ توضّأ مرّة مرّة، ومرّتين مرّتين، وثلاثاً وثلاثاً» ضعّفه الألباني لوجود شريك القاضي في سنده، وهو ضعيف، لكن من جهة حفظه، ومعنى الحديث ثابت عند شيخنا لشواهده.

٢ ـ حديث عبد الله بن زيد: «أنَّ النبيَّ ﷺ توضّأ فغسل وجهه ثلاثاً،

---

(١) تهذيب سنن الترمذي، ص٦٦.
(٢) المرجع السابق نفسه.

وغسل يديه مرّتين مرتين، ومسح برأسه، وغسل رجليه مرّتين». ذهب الألباني إلى قوله في الرِّجْلين مرّتين أنه شاذّ، والسند عند شيخنا صحيح.

٣ ـ حديث أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**جاءني جبريل فقال: يا محمّد إذا توضّأت فانتضح**». ضعَّفه الألباني لضعف الحسن بن علي الهاشمي والحديث بسنده مُضْطرب، لكنه روي من طريق زيد بن حارثة بسند حسن، ومن طرق أخرى عن الحكم بن سفيان وجابر وأسامة، فالحديث بذلك صحيح. قال شيخنا حفظه الله: وبه يعرف غلط من ضعّف الحديث مطلقاً ولم يراعِ هذه الطرق. اهـ.

٤ ـ حديث أنس: «أنَّ النبيَّ ﷺ كان يتوضّأ لكلّ صلاة». ضعَّفه الألباني وهو صحيح عند شيخنا رجاله رجال الصحيح.

٥ ـ حديث أبي هريرة: عن النبيِّ ﷺ قال: «**تحت كلّ شعرة جنابة، فاغسلوا الشعر، وأنقوا البشر**». ضعَّفه الألباني لوجود الحارث بن وجيه ضعفه أبو داود والنسائي. والحديث عند شيخنا صحيح بالشواهد وليس ضعيفاً على الإطلاق.

٦ ـ حديث ابن عباس: «عن النبيِّ ﷺ في الرجل يقع على امرأته وهي حائض قال: **يتصدَّق بنصف دينار**. ضعَّفه الألباني وصحَّحه شيخنا.

٧ ـ حديث ابن عباس: «أنه سُئِلَ عن التيمّم فقال: إنَّ الله قال في كتابه حين ذكر الوضوء: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، وقال في التيمم: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم﴾ [المائدة: ٦]، وقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]. فكانت السنّة في القطع الكفّين، إنما هو الوجه والكفّان يعني التيمم. ضعّفه الألباني، وسند الحديث عند شيخنا صحيح.

٨ ـ حديث علي: «كان رسول الله ﷺ يُقْرِئنا القرآن على كلِّ حال ما

لم يكن جنباً». ضعّفه الألباني لوجود عبد الله بن سَلَمة المُرادي مُختلف فيه، وحديثه عند شيخنا حَسَن لذاته، وصحيح لطريق آخر له.

ومن كتاب أبواب الصلاة:

٩ ـ حديث عائشة: «ما رأيت أحداً كان أشدّ تعجيلاً للظهر من رسول الله ﷺ ولا من أبي بكر ولا من عمر». ضعّفه الألباني، والحديث عند شيخنا حسن له شاهد صحيح عن أمِّ سلمة، ولمعناه شواهد أخرى في الصحيح.

١٠ ـ حديث علي عليه السلام: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يا عليّ، ثلاث لا توخِّرها: الصلاة إذا آنت، والجنازة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت لها كفؤاً». ضعّفه الألباني لوجود سعيد بن عبد الله الجهني، وهو مقبول. قال عنه أبو حاتم: مجهول، ووثَّقه ابن حبّان. والحديث عند شيخنا حسن، بل هو صحيح على مذهب ابن حبَّان وغيره.

١١ ـ حديث عبد الله بن مسعود: «إنَّ المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق، حتى ذهب من الليل ما شاء الله، فأمر بلالاً فأذّن، ثم أقام فصلَّى الظهر، ثم أقام فصلَّى العصر، ثم أقام فصلّى المغرب، ثم أقام فصلّى العشاء». ضعَّفه الألباني لانقطاعه، وهو عند شيخنا له شاهد بسند صحيح.

١٢ ـ حديث ابن عباس: «إنما صلّى النبيُّ ﷺ الركعتين بعد العصر لأنه أتاه مال فشغله عن الركعتين بعد الظهر فصلاَّهما بعد العصر ثم لم يعد لهما». ضعَّفه الألباني لوجود عطاء بن السائب، وقد روى عن جرير بعد الاختلاط، وهو عند شيخنا مع ذلك له شاهدان صحيحان.

هذا ما أردنا إثباته هنا من الخلاف بين شيخنا والشيخ الألباني رحمه

الله من جهة التصحيح والتضعيف، على أنَّ استقصاء ذلك سيأتي في مجلّد ضخم في دراسة سأُعدُّها إن شاء الله للطباعة.

*** وللوقوف على طريقة التهذيب التي انتهجها شيخنا مع سنن الترمذي نسوق هذا المثال من أبواب الصلاة:**

١٧٩ ـ باب من رأى الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم:

٢٢٠ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبيُّ ﷺ يفتتح صلاته ببسم الله الرحمن الرحيم. قال أبو عيسى: وليس إسناده بذلك، وقد قال بهذا عدَّة من أهل العلم من أصحاب النبيّ ﷺ منهم أبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وابن الزبير، ومن بعدهم من التابعين رأوا الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، وبه يقول الشافعي.

أقول: الحديث حسن فإنّ رجاله ثقات غير أبي خالد الوالبي، فقال فيه ابن عدي: في حديثه لين. قال أبو حاتم: صالح الحديث، وحسَّن له الترمذي، وله طريق آخر نحوه رواه البزار، قال في (مجمع الزوائد): ٢/ ١٠٩: ورجاله موثَّقون، وقال شيخنا في (الهداية) ٣/ ٣٤: وهو بمجموع طرقه وشواهده حديث صحيح، وَوَرَدَ في قراءتها أحاديث، وأصحُّها حديث فيها لابن عباس مرفوعاً: «إذا قرأتم الحمد لله فاقرؤوا بسم الله الرحمن الرحيم إنّها أمّ القرآن، وأمّ الكتاب، والسبع المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها». رواه الدارقطني وهو حديث صحيح، وفيها حديث لأبي هريرة أيضاً، رواه الطبراني في (الأوسط) بمثل ماسبق قال في (مجمع الزوائد): ورجاله ثقات، وكذا رواه البيهقي ٢/ ٤٥ وفيها حديث لأبي هريرة في صلاته وقراءته لبسم الله الرحمن الرحيم في أولها، وقوله عند فراغه منها: والله إني أشبهكم صلاة برسول الله ﷺ. رواه النسائي وابن حبَّان والحاكم والطحاوي وغيرهم، وصحَّحه غير

واحد من المحدِّثين، وفيها غير ذلك، وحديث الباب رواه البيهقي: ٢/ ٤٧[1]. اهـ.

لعلّنا بهذا المثال نستشف أنّ هذا الكتاب، تهذيب سنن الترمذي، موسوعة في علوم الحديث وتطبيقاته من جهة، وكتاباً نموذجياً للمشتغلين بالسنّة من المحدِّثين من جهة ثانية.

٢ ـ تهذيب الخصائص النبوية الكبرى للسيوطي:

طُبع بالمغرب، ثم بدار البشائر الإسلامية في مجلّد بزيادات، عام ١٤١٠هـ.

من الكتب النفيسة التي اشتغل بها شيخنا حفظه الله، كتاب الخصائص النبوية الكبرى للحافظ السيوطي، ذلك أنّ طريقة هذا الإمام تمثّلت في جمع ما رُوي في موضوع الخصائص مطلقاً دون تمييز لصحيح الأحاديث والآثار وسقيمها، فكان على شيخنا ملاحقة خبايا هذا الكتاب ليميز الخبيث من الطيّب، فتتَّضح الصورة النبويّة من زاوية الخصائص والفضائل.

يقول شيخنا في المقدّمة:

«وضروري أنّ اعتقاد دين أو مذهب أساسه المعرفة، وإذا كانت معرفة الرسول ﷺ أساس الإسلام، فكيف نحلم بإسلام أكثر من نصف أهل الأرض، وهم لا يكادون يعرفون عن رسول الإسلام شيئاً، أو ربما لا يعرفون عنه أكثر من ضلالات ساهم القلم المسلم في نشرها وتوفير الأجواء الفاسدة لرواجها، أليس أكثر المفتريات على رسول الإسلام ﷺ اعتمدت كتب المسلمين ونقلت عنها؟».

---

(١) تهذيب سنن الترمذي، ص٢٠٥ ـ ٢٠٦.

ثم قال: «شيء مؤسف جداً أن نرى المسلم يسيء إلى رسوله ﷺ وإلى الدين الذي يحمل، ويظلم الإنسانية بصرفها عن الحق والسلام والخير، وحجب معالم الكمال والنضج المعرفي والروحي والإنساني في دين الله الإسلام»[1].

وإفادةً للقارئ المشتغل بالحديث النبوي ارتأى شيخنا حفظه الله أن يزوِّد مقدمته ببيان الأحاديث الموضوعة والواهية والضعيفة التي وَرَدت في كتاب الحافظ السيوطي رحمه الله.

وقد قام الأستاذ مجد مكي وفّقه الله بخدمة الكتاب ومراجعته وترقيمه وتفصيل مقاطعه، ومراجعة شيخنا في كثير من المباحث العلمية، مما أثرى الكتاب شكلاً ومضموناً.

وكان من رأي بعض طلاب العلم في المدينة المنّورة، أن تُجرَّد كل الأحاديث الموضوعة والواهية الورادة في كتب الموالد والخصائص والشمائل والسِّيَر، ليكون على حيطة منها المبتدئ في طلب العلم، حتى لا تختلط في ذهنه عند تصوّره لشخصية الرسول ﷺ.

كما كان التخريج للأحاديث وشرح غريب الألفاظ من جملة المهام التي تكفّل بها شيخنا في عمله القيّم.

كما ذكر شيخنا حفظه الله في مقدمة كتابه قائمة بالأخطاء الحديثية للدكتور محمد خليل هراس الذي حاول تحقيق كتاب الخصائص، فأتى بالعجب العجاب من المغالطات الخطيرة في علم دقَّت أصوله فضلاً عن تفاصيله.

---

(١) تهذيب الخصائص النبوية الكبرى، ص٧.

كما بيّن شيخنا في مقدّمة الكتاب بعض الأحاديث التي أخطأ في تخريجها الإمام السيوطي رحمه الله.

وكان من منهج شيخنا حفظه الله أنه يحذف الأحاديث الواهية ويستبدل بها ما صحّ في الموضوع، ولم يذكره الإمام السيوطي في كتابه، ومن ذلك:

الأحاديث الواردة في باب ما ظهر في زمان رضاعه ﷺ من الخصائص والآيات وأغلبها مما أخرجه ابن إسحاق وابن راهويه وأبو يعلى والطبراني والبيهقي، وأبو نعيم وابن عساكر وابن سعد بأسانيد واهية وبعبارات منكرة مردودة، فاستبدل بها شيخنا ثلاثة أحاديث أولها سنده جيد، والثاني رواه أحمد ومسلم، والثالث رواه أحمد والدارمي والحاكم بسند حسن. فلتراجع.

ومما وهم فيه شيخنا حديث أنس: «كان رسول الله ﷺ أزهر اللون كأن عرقه اللؤلؤ..»[1]، وحديث جابر بن سمرة: «..وأما أنا فمسح خدي فوجدت ليده برداً أو ريحاً كأنما أخرجها من جونة عطار»[2]. قال شيخنا في التخريج: «.. هذا والذي قبله من زياداتي». اهـ. وليس كما قال، بل ذكرهما الإمام السيوطي في باب جامع صفة خلقه ﷺ، فلستُ أدري كيف ذهل شيخنا حفظه الله عن هذا الأمر؟!.

وفي آخر الكتاب فهرست للأحاديث الواردة فيه، وهي أحاديث مهذّبة بين صحيح وحسن ومقبول.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم ٤٢٩٩ في كتاب الفضائل، وأحمد والدارمي.
(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم ٤٢٩٧ في كتاب الفضائل.

٣ ـ إتحاف أهل الوفا بتهذيب كتاب الشفا في حقوق المصطفى، للقاضي عياض:

أو (نوار الرياض بتهذيب الشفا للقاضي عياض)، كما في نسخة من المخطوطة التي حظيت بشرف الحصول عليها قبل طبع الكتاب.

مجلد ضخم، طُبع بدار البشائر الإسلامية عام ١٤٢١هـ.

وهو عملٌ على شاكلة تهذيب الخصائص النبويّة الكبرى منهجاً وأسلوباً، حاول القاضي عياض رحمه الله من خلال كتابه إبراز حقوق سيدنا محمد ﷺ على أمّته دون إغفال حقوق الربِّ جلّ جلاله، وحقوق جميع الأنبياء والصحابة والملائكة.

كما أنّ الكتاب يناقش بعض المسائل العالقة من آيات قرآنية وأحاديث نبوية مشكلة، ذلك أنّ القاضي عياض رحمه الله كتب كتابه هذا على طريقة الفقهاء.

أما كتاب الخصائص للإمام السيوطي فقد ألّفه على طريقة المحدِّثين، كما أنه امتاز بذكره فيه لجانب المغيَّبات، مع سرد الخصائص النبوية حسب مراحل حياة رسولنا الكريم سيدنا محمد ﷺ.

وكتاب (الشفا)، كالترياق المجرَّب، بلسمٌ شافٍ من أمراض النفوس ورعوناتها، داوم على قراءته بعض أهل الله وقوفاً عند حقوق سيد الخلق ﷺ.

أما الكتاب الآن وقد نقّح من سقيم الأحاديث وضعيفها بما وفق الله شيخنا لتهذيبه، فإنَّ دواءه سيشتدُّ أثره ويقوى مفعوله إن شاء الله.

والسبب في مباشرة شيخنا لتهذيب الشفا هو الأخ السيد مجد بن أحمد مكي الحلبي ثم المكي أحد تلامذة شيخنا في الحجاز الذي طلب

منه أن يشتغل بهذا المؤلَّف النفيس على غرار ما صنع بتهذيب الخصائص النبوية للإمام السيوطي، فكان بذلك الاقتراح موفقاً للغاية، جزاه الله خيراً.

وكان من منهج شيخنا أنّه يزيد زيادات على ما في أصل الكتاب من الأحاديث إذا اقتضى المقام ذلك، فمن زياداته:

ـ صفة رسول الله ﷺ: أنه كان أحسن الناس وجهاً كالشمس والقمر أزهر اللون أبيض مليحاً مقصداً، كأنما صيغ من فضة، أشكل العينين، أهدب الأشفار، ضليعَ الفم، شثن الكفين والقدمين، طويل الذراعين والكفين، ضخم الرأس والكراديس... إلخ.

ـ وصفته ﷺ أنه كان يبصر من ورائه كما كان يبصر أمامه، ولا مانع يمنع من ذلك غير أن المختار هو التسليم والإيمان بما قال ﷺ: «**إني لأنظر من ورائي كما أنظر من بين يدي**».

حديث أنه كان ﷺ بالبطحاء فأتى عليه يزيد بن ركانة أو ركانة بن زيد ومعه أعنز له، فقال: يا محمد هل لك أن تصارعني.. الحديث.

حديث أبي هريرة: ما رأيتُ أحداً أسرعَ من رسول الله ﷺ في مشيه كأنما تُطوى له، إنّا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث.

حديث جابر: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قِبَلَ نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ أدركته القائلة يوماً بوادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرّق الناس في العضاه يستظلّون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة، فعلّق بها سيفه، فنام نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: **إنَّ هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظتُ وهو في يده صلتاً، فقال لي: مَن يمنعك مني؟ فقلت: الله، فشام السيف وجلس**. ثم لم يعاقبه.

وفي آخر الكتاب فهرست للأحاديث الواردة فيه.

ولقد أكرمني الله تعالى بختم (إتحاف الوفا) بعد طبعه مباشرة، فقرأت من مخطوط الشيخ وهو يراجع النسخة المطبوعة، ويقابلها بالمخطوط، واستدرك ما وقع من سقط غير مقصود، مما يؤكد مدى المسؤولية الملقاة على عواتق المحققين والناشرين الذين يفترض فيهم أن يكونوا حفظة للنصوص، مراعين لذلك أشدّ الرعاية وأتمّها. وفّقنا الله لذلك آمين.

٤ ـ تهذيب وتحقيق الاستنفار لغزو التشبّه بالكفّار للسيِّد أحمد بن الصدِّيق:

طُبع بالمغرب قديماً بالمطبعة المهدية، ثم بدار البشائر الإسلامية بزيادات مهمة، عام ١٤٠٩هـ.

من الكتب المهمّة التي خلّفها سيِّدي أحمد بن الصدّيق رحمه الله كتابه (الاستنفار في غزو التشبّه بالكفار) وهي رسالة في ظاهرة متفشّية بصورة مذهلة بين أوساط الشباب، والطبقة المثقفة من الشعوب الإسلامية، فالتشبُّه بالكفرة قد صار عادة ماضية في المجتمع، بل وأمراً ضرورياً في زعم بعضهم تكيُّفاً حسب ظنّهم بالوسط المعاش.

قال شيخنا في مقدّمة تهذيبه لهذا الكتاب القيّم:

«ما أفسد أخلاق المسلمين وجَلَب عليهم هذه الفوضى الخلقية إلا تقليد الإفرنج، وتتبُّع سبلهم، والتطلُّع إلى آثارهم، وإلا فالمسلمون لهم دين، وكتاب مليء حكمةً وهدايةً ونوراً، كما أن لهم أخلاقاً ساميةً وآداباً مرضيَّة عاليةً في شريعة نبيّهم وسنّة رسولهم، ولكنّهم ـ ويا للأسف ـ قد انخدعوا بزخارف الحياة، وأخلدوا إلى نضارة الدنيا وبهجتها، ومدُّوا

أعينهم إلى ما مُتّع به الغربيون الأوروبيون، فتنافسوا معهم، وتخلّقوا بأخلاقهم روحاً وجسماً، فأصبحوا أغرق في الضلالة والغَواية والجهالة منهم»[1].

ولي مع هذا الموضوع قضية مهمّة، ذلك أنّ شيخنا بعد قدومه من عمرة ١٤١٨هـ أخبرني أنه رآني بمكة المكرمة في المنام يتلو عليّ قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١١٣]، ثم قال لي: إنّ معناها أن لا أتشبّه بالكفار في اللباس والمظهر والأخلاق، بل وفي كل شيء من أمور الحياة.

ومن يومها تركت الزيّ الغربي الذي كنتُ مولعاً به ومتفنّناً فيه غاية التفنُّن، فلم ألبسه إلى الآن.. ولا ألبسني الله مثله إلى يوم الممات.

فالتشبُّه بالظَّلَمة، ومنهم الكفار ركونٌ إليهم بلا شكّ، ومُوجبٌ للعذاب والعقاب.. وفّقنا الله تعالى للعمل بوصايا شيوخنا وأئمتنا وتوجيهاتهم وإرشاداتهم النيِّرة..

ومن الأحاديث الواردة في الكتاب والتي أشار شيخنا إلى ضعفها:

حديث جابر: «**كلُّ نفسٍ تُحشَر على هواها، فمن هوى الكفر فهو مع الكفرة، ولا ينفعه عمله شيئاً**». قال شيخنا: رواه الطبراني في (الأوسط) وفيه ابن لَهيعة ذكره في (مجمع الزوائد) ١/ ١١٣، وأورده أيضاً ١٠/ ٢٧٥، وقال: في إسناده ضعفاء وقد وثّقوا. اهـ.

حديث أبي بكر: «**إذا قام أحدُكم في الصلاة فليسكن أطرافه ولا يتميل تميل اليهود، فإنّ سكون الأطراف في الصلاة من تمام الصلاة**». قال شيخنا: رواه الحكيم الترمذي في الأصل ١٤٥ من نوادره، وأبو نعيم في

(١) الاستنفار بغزو التشبّه بالكفار، ص٣.

(الحلية) من طريقين ٩/ ٣٠٤ كلاهما عن أسماء بنت أبي بكر عن أم رومان عن أبي بكر به، وانظر (فيض القدير) للمناوي ١/ ٤١٣، وهو ضعيف جداً، حتى قيل بوضعه. اهـ.

حديث عمر: أنه أنكر على كعب الأحبار استقبال صخرة بيت المقدس، وقال له: ضاهيت اليهودية، ولكن صلِّ حيث صلّى رسول الله ﷺ، فتقدَّم إلى القِبْلة وصلّى. قال شيخنا: رواه أحمد ١/ ٣٨ بسند ليّن وحسَّنه الشيخ أحمد شاكر فتساهل على عادته. اهـ.

حديث ركانة: «**فرقُ ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس**» قال شيخنا: رواه أبو داود ٤/ ٧٩ والترمذي ٧/ ١٧٨ وقال: حديث غريب.. إلخ. وسكت عليه أبو داود، وذكره الحافظ في الفتح ١٠/ ٢١٣ ساكتاً عليه أيضاً. وسنده ضعيف، فيه محمد بن ركانة وأبو الحسن العسقلاني وهما مجهولان، كما قال الترمذي وغيره.

أما حديث: «**لا صرورة في الإسلام**». فقال شيخنا: رواه أحمد ١/ ٣١٢ وأبو داود ٢/ ١٩٢، والحاكم وصحَّحه وأقرّه الذهبي، وصحَّحه السيوطي في الجامع، واعترضه المناوي في فيض القدير ٦/ ٤٢٨، وفي سند الحديث كلام لا تسعه هذه العجالة. اهـ.

ولقد حقّق شيخنا كتاب (الاستنفار) قبل أن يرى (المُداوي لعلل الجامع وشرحي المناوي) لشيخه سيدي أحمد بن الصدّيق رحمه الله. ونسوق هنا ما ردَّ به الحافظ سيدي أحمد على الإمام المناوي في تضعيفه للحديث، قال بعدما بيّن كلام المناوي، وفيه أنَّ في سند الحديث عمر بن عطاء، وهو ضعيف واهٍ وقال ابن المديني فيه: كذّاب: .. إنَّ في الرواة عمر بن عطاء ابن وراز ضعيف، وعمر بن عطاء بن أبي الخوار ثقة من رجال الصحيح احتجّ به مسلم، وهذا هو الموجود في سند الحديث، كما

صرَّح به في رواية أبي داود. . وممَّن صرّح به ابن أبي الخوار أبو جعفر الطحاوي في مشكل الآثار ٣/ ٣١٤/ ١٢٨٢. . اهـ بتصرف، وانظر المُداوي ٦/ ٥٩٦.

ومن الأمور المهمّة التي زادها شيخنا على كتاب شيخه رحمه الله: (فصل) في مخالفة رسول الله ﷺ للمشركين في عدم الاعتمار أيام الحج، (فصل) في مخالفة رسول الله ﷺ المشركين في عدم طلوعهم إلى عَرَفة، (فصل) في مخالفة رسول الله ﷺ المشركين في تعليقهم أسلحتهم على شيء، (فصل) في نهيه ﷺ عن ترك الشيء تحرُّجاً كالنصارى، (حديث) في فصل من اللباس والزينة: أنّ النبيَّ ﷺ قال: «**صنفان من أهل النار لم أرَهما، قوم معه سياط**» الحديث، (فصل) في نهيه ﷺ النساء عن اتّخاذ القصَّة كما اتّخذتها نساء بني إسرائيل، (فصل) في مخالفة رسول الله ﷺ أهل الكتاب في سدلهم شعرهم، (حديث) في فصل الأمر بمخالفتهم في البداءة بالأكابر عند الكتابة إليهم، عن سلمان رضي الله عنه قال: ما كان أحد أعظم حرمةً من رسول الله ﷺ، فكان أصحابه إذا كتبوا إليه كتاباً كتبوا من فلان إلى محمد رسول الله ﷺ، (حديث) في فصل نهيه ﷺ أن ينام الرجل نومة الكفار، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «مرَّ النبيُّ ﷺ برجل مضطجع على بطنه، فغمزه برجله وقال: **إنَّها ضجعة لا يحبُّها الله عزَّ وجلّ**»، (فصل) في نهيه ﷺ عن قَعْدةِ الكفار، (فصل) في مخالفته ﷺ لليهود في عدم تنظيف دورهم وأفنيتهم، (فصل) في نهيه ﷺ عن ميسر العجم. (فصل) من المناقب في نهيه عن الإطراء المبالغ فيه، (فصل) من الاعتصام بالكتاب والسنّة في نهيه ﷺ عن التفرّق في الدين، (فصل) من الزهد في تحذير النبي ﷺ من حب الدنيا والإسراف في طلبها.

هذا والكتاب مُذيّل بفهرست للأحاديث والآثار الواردة فيه.

٥ - جواهر البحار في الأحاديث الصحيحة القِصَار:

مجلدان كبيران، طُبعا بدار البشائر الإسلامية ببيروت عام ١٤١٩هـ.

أَلَّف شيخنا كتابه هذا تسهيلاً على طلاّب الحديث النبويّ الشريف، وإشباعاً لرغبة المتفقهين في السنّة المطهَّرة الصحيحة، وأورد حوالي ألفي حديث تقريباً من الأحاديث القصيرة مرتَّبة على حروف المعجم، ليسهل حفظها وتذكُّرها بعد القراءة والمطالعة الأولى.

قال شيخنا حفظه الله في المقدمة عن فوائد هذا الترتيب:

«من أهمها: أنّ قارئه لا يزال يَجْني ثماره المتنوّعة، ويقطف فواكهه المختلفة في كلِّ آنٍ وحين، فبينما هو يقرأ حديثاً في الإيمان، إذا به يقرأ بجانبه ثانياً في السِّيَر والجهاد»[١].

وفي هذه المقدمة تكلَّم سيدي عبد الله حفظه الله عن الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله فقال:

«.. وكنتُ وددت لو قيَّض الله عزَّ وجلّ رجلاً أو لجنةً من أهل الحديث للقيام بهذا العبء العظيم والخدمة النافعة، ومع مرور السنين والأيام، ظهرت بادرة طيبة لعالم المطبوعات من آثار **الشيخ ناصر الدين الألباني**، فطبع عدّة مجلّدات في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وأفرد صحاح السنن الأربعة، وصحيح الجامع الصغير وزياداته في كتب أخرى، ولولا ما فيها من أوهام فادحة، وتناقضات واضحة، لكانت فريدة في موضوعها، ومع ذلك فلا تخلو من فوائد وتحقيقات لمن له تبصُّر وإلمام

---

(١) جواهر البحار: ١/ ١١.

بهذا العلم الشريف . . »[١] .

وأصل عمل (جواهر البحار) هو صحيح الجامع الصغير للسيوطي وزياداتـه، انتقى منه شيخنا جمهرةً واسعةً من الأحاديث، وزاد عليها العشرات من الأحاديث من الصحيحين والسنن وغيرها، لم يرد لها ذكر في الجامع وزياداته.

ولهذا نجد شيخنا في العديد من تخاريج بعض الأحاديث يعقّب على الحافظ السيوطي رحمه الله:

كحديث: «**ابغوني الضعفاء فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم**». قال شيخنا: «والحديث عزاه إمامنا السيوطي رحمه الله لمسلم وليس فيه، وإنما هو في البخاري، عن سعد بن أبي وقاص، ويأتي في حرف الهاء ولم يعزه لأهل السنن، وهو فيها كما رأيت». اهـ.

وحديث: «**أبن القدح عن فيكَ ثمَّ تنفَّس**». قال شيخنا: «والحديث رواه أحمد والترمذي والدارمي وابن حبان والحاكم، وحسَّنه الترمذي وصحَّحه كلهم عن أبي سعيد الخدري. . وقد قصَّر الإمام السيوطي رحمه الله تعالى فلم يعزُ الحديث إلا لفوائد سمويه، وشُعب الإيمان للبيهقي».

وحديث: «**أثقل شيء في الميزان الخلق الحسن**». قال شيخنا: «والحديث رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان عن أبي الدرداء من طرق بعضها صحيحة، وحسَّنه الترمذي وصحَّحه. ولم يعزه السيوطي لغير ابن حبَّان».

وحديث: «**أُحُد جبلٌ يحبّنا ونحبّه**». قال شيخنا: «والحديث رواه البخاري في الزكاة، ومسلم في الفضائل، وكذا أحمد عن أبي حميد

---

(١) جواهر البحار: ١/ ١١.

الساعدي، ورواه البخاري في الجهاد وفي الأطعمة، ومسلم في الحج باب فضل المدينة، والترمذي في المناقب عن أنس، واقتصر الحافظ السيوطي في عزوه على الترمذي، كما اقتصر على البخاري في الأول، وجعله من رواية سهل بن سعد وهو من رواية أبي حميد الساعدي. والكمال لله وحده». اهـ.

كما أننا نجد استدراكات في التصحيح عند الكلام على رتبة بعض الأحاديث:

كحديث: «**أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك**». قال شيخنا: «والحديث رواه أبو داود والترمذي والحاكم، وكذا الدارمي عن أبي هريرة، وحسّنه الترمذي وصحّحه، وكذا صحّحه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وللحديث شواهد عن أنس وأبي أمامة وأُبيّ بن كعب وغيرهم، فالحديث صحيح. فقول ابن الجوزي: لا يصح من جميع طرقه، هو من أغلاطه». اهـ.

وقد استفاد شيخنا في عمله هذا من كتب شيخه الحافظ سيدي أحمد بن الصدّيق رحمه الله، وقد أشار إلى ذلك في مواطن منها:

حديث: «**أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر**». قال شيخنا: «وسند الحديث صحيح، وقد حصل وَهمٌ للحافظ السيوطي في هذا الحديث، حيث جعله متواتراً، وقد بيّن ذلك أستاذنا سيدي أحمد الصدّيق في رسالة له في ذلك». اهـ.

وللتذكير، فإنَّ لشيخ شيخنا على الجامع الصغير وشرحيه الكبير والصغير للمناوي عملاً ضخماً مشهوراً هو: (المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي) في ست مجلّدات. وقد سألتُ شيخنا عما إذا كانت له استدراكات على شيخه رحمه الله؟ فأجابني بالإيجاب، واعداً

إياي بالكتابة في ذلك، لتستفيد أجيال المحدِّثين القادمة من التحقيقات التليدية استفادت من قبل من التحقيقات الصدِّيقية.

وبعد انتشار (جواهر البحار) لشيخنا في المشرق والمغرب، وصلت سيدي عبد الله رسالة من أحد علماء تركية، يطلب منه الإذن في ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة التركية، فأرسل إليه شيخنا على التوّ بالجواز المطلق والإذن التام.

٦ ـ بداية الوصول بلب صحيح الأمهات والأصول (القسم الأول):

سيصدر عن دار ابن حزم ببيروت بعون الله تعالى.

وهو من المشاريع التي انتهى الشيخ من أول شوط من أشواطها فحرَّر لنا من مسودة هذا الكتاب إلى الآن: كتاب العلم، الاعتصام، الإسلام والإيمان، القدر، الطهارة، الصلاة، الزكاة، الصيام، الحج والعمرة، الأذكار والدعوات.

فجاء كتاباً حافلاً ضخماً، سيكون بعد الانتهاء من سائر الكتب والأبواب الفقهية منه ـ بعون الله ـ موسوعة حديثية رائدة للحديث النبوي الصحيح. أي أنّ حلم المحدثين سيكون في بداية تحققه، وهو ما أشار إليه شيخنا في عنوان الكتاب: (بداية الوصول).

وقد أكرمني الله بقراءة هذا القسم الأول من نسخة المخطوط على شيخنا داخل الحرمين الشريفين، فكانت حلقات الدرس رياضاً من رياض الجنة، فوائد واستفسارات ونوادر واختيارات.

قال شيخنا في مقدِّمة الكتاب:

«والأمهات التي جعلتها مصدراً للكتاب هي الآتية: الموطأ،

البخاري، مسلم، سنن أبي داود، النسائي، الترمذي، ابن ماجه، الدارمي، البيهقي، مسانيد الطيالسي، أحمد، الحُميدي، أبي يَعْلَى، البزار، مصنف ابن أبي شيبة، مصنف عبد الرزاق، صحيح ابن خُزيمة، صحيح ابن حِبَّان، مستدرك الحاكم، معاجم الطبراني الثلاثة، وغيرها مما سيرى القارئ العزو إليه». اهـ.

وفي المقدمة تمهيد مطوَّل حول مفهوم الوحي الإلـٰهي، وأنَّ السنّة لم تُدوَّن أوائل الإسلام، وفكرة بداية التدوين للحديث، وأول من فكّر في جمع الحديث وتدوينه، وأول من كتب في ذلك، ومن ألف في الصحيح على حدة، والمختصرات في الحديث النبوي، وموقع السنّة من التشريع، ووجوب العمل بالسنة النبوية، وأنّ طاعة رسول الله كطاعة الله عزّ وجلّ، ولقطات من فضائل الاشتغال بالحديث النبويّ الشريف ونشره والدعوة إليه.

٧ـ الأنوار الباهرة بفضائل أهل البيت النبوي والذريّة الطاهرة:

رسالة، طُبعت بدار ابن حزم ببيروت عام ١٤١٧هـ.

لمّا كانت منزلة آل بيت رسول الله ﷺ بالقدر المتعارف عليه شرعاً ارتأى شيخنا إبراز فضائلهم قياماً بحقٍّ من حقوقهم الضائعة اليوم، وقبل اليوم.

كما أنَّ الشيخ بهذا الكتاب القيّم أبان عن تشيُّعه المعتدل الذي هو تشيُّع أهل السنّة والجماعة، مُنبِّهاً لضرورة إحياء هذه الرابطة، الإحياء المشروع، بعدما صارت مستغلّة لأغراض الرفض الغالي والمتطرّف.

قال شيخنا في مقدمة الكتاب:

«كان الدافع والحامل لي على الكتابة في هذا الجانب الطاهر أموراً وهي كالآتي:

أولاً: ما نشاهده من بعض الفِرَق الذين يكرهون سماع اسم الشريف والسيد فضلاً عن رؤيته، فأحرىٰ محبته وإكرامه وتعظيمه، وهؤلاء هم المعروفون بالنواصب، الذين يعادون أهل البيت الأطهار، ويُضْمرون لهم الأحقاد والأضغان والبغضاء، ولا شك في ضلال هؤلاء وانحرافهم.

ثانياً: إعرابي عما يكنُّه صدري لهم من إجلال وتقدير.

ثالثاً: وهي من المهمَّات ردُّ مزاعم الشيعة الغُلاة بصفة عامة الذين يرمون أهل السنة بالنَّصْب، ويتّهمونهم على الإطلاق بعداوة أهل البيت والانحراف عنهم»[1].

ثم ظهر الشيعيُّ الجَلْد سيّدهم مرتضى العسكري، الذي كتب كتاباً في الردّ على (الأنوار الباهرة) سمّاه: (مع أبي الفتوح التليدي في كتابه الأنوار الباهرة).

فماذا وجد في كتاب الأنوار الباهرة حتى يكتب عنه؟!

قال في تمهيد كتابه: فوجدت في الكتاب ثلاثة أمور:

«أ ـ إيراد روايات جلُّها صحيحة في مدح أهل النبيّ عليهم السلام جزاه الله خيراً عن ذلك.

ب ـ وجدت الأستاذ يناقض نفسه في أقواله أحياناً.

جـ ـ يتكلّم بلهجة يثير الفتنة بين المسلمين ويهدِّد بإقامة الفتنة أكثر من ذلك في مؤلف آخر سوف يؤلّفه». اهـ.

وكأنَّ ما كتبه هو في هذا الردِّ ليس من باب إثارة الفتنة والبلبلة وزرع بذور الاختلاف كما يقولون.

---

(١) الأنوار الباهرة، ص٦ بتصرف.

مع أنّه عند شروعه في الردّ افتتح كلامه بقوله:

. . هذا ما قاله في مفتتح كتابه أستعين بالله وأقول في جوابه:

جـاء شقيـقٌ عـارضـاً رُمحَـه إنَّ بَنِـي عمِّـكَ فيهـم رمـاحُ

أليس هذا البيت الشعري مُؤْذن بالفتنة والحرب. . وأن الرمح الذي شهره شيخنا حسب زَعْمه سيجابهه هو برماح لبني عمِّه؟!.

هذا وإن كتابه: «مع أبي الفتوح التليدي»، كلُّه سبٌّ وشتمٌ لشيخنا مع اتّهامه بالزور والبهتان والافتراء.

كما اتّهم الإمام البخاري بتمزيق الأحاديث وتغييرها، بل وكتمانها دون أن يكون له أدنى اطّلاع على طريقته في جامعه الصحيح، بل إنه لو طالع (الهَدْي الساري) لابن حجر لوجد الجواب الشافي لمسألة تقطيع الأحاديث، وأنها لا دخل لها بالسياسة والمواقف الشرعية، وإنما هو إجراء حديثي تقني يُراد به الاختصار، وتنويع الفائدة، واللطيفة الحديثية ليس إلاّ.

وتراه يستند في كلامه على روايات الطبري وابن الأثير والقرطبي والسيوطي، كأننا ملزمون بقبول كل تلك الروايات السياسية التي فيها الموضوع والضعيف والواهي والحسن والصحيح. وما صحَّ منها إلا القليل.

أفلا يعلم مرتضى العسكري ومَنْ على شاكلته أنّ كتب التواريخ مملوءة بالموضوعات والضعاف من الأحاديث؟!.

والغريب في الأمر أنّ العسكري عسكري حتى في طريقة تحريره للمسائل العلمية، إذ يريدنا أن نقبل بالأحاديث ولو كانت أصولها مخطوطة ليس لأحد القدرة على مراجعتها إلا من كان قريباً من المكتبة المركزية لجامعة طهران.

وليته يذكر الحديث بسنده حتى يقف عليه مَنْ لم يقف على مثله في أمّهات الكتب وأصول الإسلام، فأنت مجبورٌ للأخذ عنه وقبول ما يقوله لك، لأنه عن مدرسة أهل البيت ينافح وأنت من العامة.

واضحك لمثل هذا الباطل يروى في كتابه:

الجويني بسنده قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أنا وعليّ والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهَّرون معصومون».

علينا إذن قبول مثل هذه الرواية المرجع في عقيدة الإمامية الاثني عشرية، وليس لنا أن نسأل عن سندها كيف هو؟ وعمن يروي الجويني هذا الحديث؟ ومن هم باقي رجال السند؟ وكيف هي سيرتهم... إلى آخر أسئلة كل محدِّث محقّق.

على أنّ هذا الأثر ظاهر الوضع والاختلاق تفوح منه روائح الرفض الممقوت لمن له مسكة عقل وأدنى تمييز.

وهذا لا يطعن في عدالة الجويني وأمثاله، ممن يوردون أحاديث بأسانيدهم دون أن يبيّنوا للناس درجة الحديث كما هو صنيع عدد كبير من أئمة الحديث من أهل السنّة.

وشيخنا اليوم في إطار الإعداد لردّ مطوّل على المدعو مرتضى العسكري، سيبين فيه إن شاء الله التلفيق التاريخي للوقائع الذي امتاز به هذا الشيعي الرافضيّ الضالّ.

٨ـ فضائل الصحابة والدفاع عن كرامتهم وبيان خطر مبغضيهم والطاعنين فيهم:

مجلّد متوسط، طُبع بدار ابن حزم ببيروت عام ١٤٢٠هـ.

بعد أن صار للشيعة الروافض أبواق في مغربنا الإسلامي، وخاصَّة في مدينة طنجة، كتب شيخنا عن فضل مَنْ سبقونا بالإيمان من الصحابة على مختلف مراتبهم وأصنافهم، إذ أصبح حديث المقاهي عن أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وعائشة وحفصة وغيرهم من الصحابة رضي الله تعالى عنهم؛ حديث تجريح فيهم وحطّ من منزلتهم، بل وتكفير لبعضهم والعياذ بالله.

تصدَّى شيخنا حفظه الله لهذه الآراء الشيطانية قائلاً في المقدّمة:

«لكن الإخوان الشيعة وأعني بهم بعض غلاتهم الروافض لم يلتزموا بما دعت إليه الجماعة، وطالبوا أهل السنة من أجله، فنرى بعض غُلاتهم لا يألون جهداً في السعي في التفرقة، فمن وقت لآخر يُخرجون الرسائل والكتب الضخمة ذوات الأسفار، فيها مثالب للصحابة والطعن فيهم وتضليلهم وتشويه سمعتهم...»[1].

وحتى لا يفهم كلام شيخنا على غير مراده ساق في الحاشية توضيحاً مهماً فقال: «قلت: الغلاة الروافض، لأن في **الشيعة علماء معتدلين لا يسبُّون الصحابة، ولا يتبرّؤون من الخلفاء، ويترحّمون ويترضّون عليهم، ويوافقون المسلمين بالعمل بالسنّة عند أهل السنة والجماعة، ولا يرضون بما يأتي به الغلاة، ويستنكرون ما يكتبونه وينشرونه ضد الصحابة وأهل السنّة**»[2].

فالذين ذكرهم الشيخ بهذا التحديد الدقيق لا إخالهم أن يكونوا غير إخواننا الزيدية، خصوصاً المتفتحين منهم دون المتعصّبة الذين شنّوا غارة

---

(١) فضائل الصحابة، ص٩.

(٢) المرجع السابق نفسه.

قوية على الروافض وعقائدهم الباطلة المنحرفة، فكانوا أشدّ عليهم من انتقادات مذاهب أهل السنة.

فإذا كان ثمة تفكير في التقارب بين السنّة والشيعة، فيكون مع الزيدية دون الإمامية الجعفرية، إذ لا يمكن الوصول مع هؤلاء إلى مرجعية موحّدة في التصحيح والتضعيف، أو في التعديل والتجريح يمكننا معاً أن نتوحّد بها في إصدار الحكم وبيان الحقيقة.

أما الزيدية فإنهم يقولون بإمامة مَنْ نعتقد نحن أهل السنّة بإمامتهم من علماء الجرح والتعديل وأئمة الفقه والحديث.

* * *

ثالثاً:

ومن كتبه في الفقه والفتاوى

١ - بزوغ القمر بوجوب تقصير الصلاة في السفر:

طُبِعَت الرسالة بالمطبعة المهدية بتطوان عام ١٣٨٢ هـ.

يقول شيخنا في المقدّمة القصيرة لهذا الكتاب:

«أما بعد: فقد حَصَل نزاع شديد، وخصام طويل في حكم صلاة المسافر خلف المقيم، هل فرضه الإتمام اتّباعاً للإمام أم التقصير اتّباعاً لأصل الفرضية؟ وحيث إنّ كلا الفريقين له حجّة يستند إليها وطريق يعتمد عليها، ورأينا كثيراً من إخواننا في حَيْرة من هذا الموضوع الذي يجب الاهتمام به بكثرة لتعلّقه بجزئية من جزئيات ذلك الركن العظيم والأصل الأصيل الذي هو عماد الدين، توجَّهت همتنا للبحث عن ذيول المسألة وتحريرها بعد أن طلب منا ذلك، فجمعناها في هذه الرسالة التي هي ضالّة كل باحث عن الحقائق». اهـ.

وقد مرّ بنا كيف أن الشيخ سيدي عبد الله بن الصدّيق رحمه الله قد خالف شيخنا فيما ذهب إليه في رسالة بيَّن من خلالها رحمه الله أنّ من الواجب إتمام المسافر صلاته خلف المقيم...

٢ - منهاج الجنَّة في فقه السنّة:

وهو أيضاً من الكتب الأولى التي ألّفها الشيخ حفظه الله، فنفع الله به أقواماً كثيرين، كما درَّسه الشيخ مراراً لطلبته في الزاوية. وهو خاصّ في العبادات النبويـة بدءاً من الطهارة ومروراً بالصلاة والزكاة والصيـام

ووصولاً إلى الحجّ والعمرة، كملخَّص عملي للتطبيق.

وكان اسم الكتاب في البداية: (المنتخب من كلام سيد العجم والعرب).

٣ ـ إتمام المنّة بشرح منهاج الجنَّة في فقه السنّة:

مجلّد، طُبع بدار البشائر الإسلامية ببيروت عام ١٤٢٠هـ.

قال شيخنا في مقدمة الكتاب عن ظروف كتابة هذا الشرح:

«وقد كنت طبعت هذه الرسالة ـ يعني منهاج الجنّة في فقه السنّة ـ سنة ١٣٨٧هـ ثم أُعيد طبعها عام ١٤٠٨هـ، وتكرَّرت الطلبات في شرحها من الكثيرين منذ وُضعت ونُشرت، حتى إنّ بعض كبار أشياخي الأموات قال لي في رؤيا عام ١٣٩٢هـ: إنّ الناس قد انتفعوا بكتابك.. وها هم ينتظرون منك شرحه لهم». اهـ.

وقد أخبرني شيخنا أنَّ سيدي أحمد بن الصدّيق رحمه الله هو الذي أشار عليه في هذه الرؤيا بشرح منهاج الجنة، فجاء بحمد الله تاماً في المنفعة والتعليم وميسَّراً للغاية.

بدأ شيخنا في كتابة الشرح عام ١٣٩٢هـ، فلمَّا قارب ختم كتاب الطهارة، توقَّف عن التأليف فيه حتى إنه ليشعر بالعجز عن الكتابة كلّما فكَّر في إتمامه، فتفرَّغ إلى الكتابة في أمور أخرى حتى سنة ١٤١٧هـ لما ضاعت منه الكراسة الأخيرة من كتابه (بداية الوصول)، الذي ما زال يشتغل فيه إلى اليوم، فتذكَّر (منهاج الجنّة) وشَرْحَه، فأخذ في إتمامه، ريثما يجد الكراسة المفقودة. فكان من كرامات شيخنا أن أنهى شرح (منهاج الجنّة) في سنة واحدة، فسمَّاه لذلك بإتمام المنّة، لأنه بحق منّة إلـهية لطلبته ومريديه.

ومن تمام الكرامة أنّ شيخنا فور انتهائه من شرح منهاج الجنة وجد الكراسة المفقودة في ركنٍ من مكتبته.

وقد ضمَّن شيخنا في كتابه هذا ـ كلما أتيحت له الفرصة ـ أقوالاً في الفقه المالكي تخالف صريح الأحاديث النبوية، نذكر منها قوله:

وقول خليل في المختصر عاطفاً على النجس:

(وجلدٌ ولو دُبغ ورخِّص فيه مطلقاً إلا من خنزير بعد دبغه في يابس وماء) يخالف ما صحَّ من الأحاديث المطلقة[1].

وقوله: فقول ابن أبي زيد في الرسالة: (ويستحب لها ـ يعني المستحاضة ـ ولسَلِس البول أن يتوضأ لكل صلاة) هو خلاف أمره ﷺ[2].

وقوله: وهذا الوضع هو مذهب كل الأئمة رحمهم الله، ولم يخالف فيه ويرسل إلا الروافض وبعض المتعصّبة من المنتسبين إلى مذهب مالك مع أنّ ابن عبد البر وهو من أئمة المالكية، يقول: لم يأتِ عن النبي فيه خلاف... إلخ[3].

وقوله: ومن الخطأ والغلط بل سوء الأدب قول من قال: وكرهوا بسملة تعوُّذاً، يعني في صلاة الفريضة[4].

---

(١) يقصد حديث: **أيما إهاب دبغ فقد طهر**. إتمام المنّة بشرح منهاج الجنة، ص٤٥.

(٢) يقصد حديث: **ثم توضئي لكل صلاة**. إتمام المنّة بشرح منهاج الجنة، ص٩٣.

(٣) يقصد بالوضع: وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة. إتمام المنة بشرح منهاج الجنة، ص٢٠٧.

(٤) والقائل هو ابن عاشر في متنه (المرشد المعين) كما في إتمام المنّة بشرح منهاج الجنة، ص٢١١.

وقوله: وسواء في ذلك، أي في قراءة الفاتحة والتأمين، الإمام والمأموم والفذ، لعموم الأحاديث في ذلك. وبهذا قال أكثر الأئمة والعلماء، وخالف بعض ذلك الإمام مالك رحمه الله تعالى[1].

وقوله: ويلاحظ أنَّ حديث التسليمتين رواه عن النبيّ ﷺ أكثر من خمسة وعشرين صحابياً مخرَّجة في الصحاح والسنن والمسانيد والمستخرجات والمعاجم وغيرها، بينما حديث التسليمة الواحدة لم يصح فيه إلا حديث عائشة رضي الله عنها، وهو غير معارض للحديث المتواتر، بل هو محمول على الاكتفاء به، والأفضل التسليمتان، فالعجب مع هذا ممَّن يتعصّب ويقتصر على تسليمة واحدة[2].

و(منهاج الجنة في فقه السنة) خاص في العبادات المحضة، ويتمنّى طلبة العلم والباحثون من تلاميذ شيخنا أن يخصّص سيدي أبو الفتوح كتاباً في فقه المعاملات الأسرية والمالية، يكون على غرار (منهاج الجنة) نبوياً خالصاً، ثم يقوم بشرحه كما فعل في (إتمام المنّة).

٤ ـ تعليقات على الأخبار المسطورة في القراءة في الصلاة ببعض السورة للحافظ سيِّدي أحمد بن الصدّيق رحمه الله:

وهي مجموعة من التحقيقات والتخاريج على الأحاديث الواردة في رسالة شيخه الحافظ رحمه الله. أما الرسالة فهي ردٌّ على قولٍ من أقوال إخواننا المالكية في كراهة الاقتصار على قراءة بعض السورة في الصلاة، معدداً الأدلة الدالّة على قراءة بعض السورة في صلاة الفريضة والنافلة مما يبطل دعوى الكراهة، وعدم الورود.

---

(١) إتمام المنّة بشرح منهاج الجنّة، ص٢١٣.

(٢) يعني من المالكية. إتمام المنة بشرح منهاج الجنّة، ص٢٣٨.

طُبعت هذه الرسالة مع كتاب شيخنا (إتمام المنّة بشرح منهاج الجنة).

ومن الاستدراكات التليدية على الحافظة الصدّيقية:

حديث أبي ذر، أنّ النبيَّ ﷺ قام بآية حتى أصبح.

عزاه الحافظ سيدي أحمد إلى الطحاوي وابن ماجه والنسائي. وقال شيخنا مستدركاً: والحديث رواه أيضاً الحاكم في (المستدرك) (١/ ٢٤١) وصححه ووافقه الذهبي. اهـ.

وحديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «**أيحبّ أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد ثلاث خَلِفات عظام سمان؟**» قال: قلنا: نعم، قال: «**فثلاث آيات يقرأ بهنّ في الصلاة خير له منهنّ**».

عزاه الحافظ سيدي أحمد إلى مسند الإمام أحمد فقط، فقال شيخنا:

«وسنده صحيح، ورواه أيضاً مسلم في فضائل القرآن (٦/ ٨٩) مع النووي، والدارمي في فضائل القرآن (٣٣١٧)، وابن ماجه برقم (٣٧٨٣)، ولعلّ المؤلّف رحمه الله تعالى لم يستحضر الحديث في هذه المصادر وقت الكتابة، وسبحان مَنْ لا ينسى». اهـ.

٥ ـ نصب الموائد لذكر الفتاوى والنوادر والفوائد:

طبعا بدار ابن حزم، طبع الجزء الأول عام ١٤١٤هـ، والثاني عام ١٤١٦هـ.

وهو من طُرف الكتب التي ألَّفها شيخنا وجمعها، فهي سلسلته حول فتاويه الفقهية وأجوبته على أسئلة الطلبة أو العامة من الناس، بالإضافة إلى العديد من النوادر والفوائد التي جمعها أثناء مطالعته للكتب والمصنّفات.

كما ضمَّن شيخنا في هذه السلسلة فقرات حول حياته حفظه الله، التقطنا معظمها في ترجمتنا المسمَّاة: (أنيس دربي من سيرة الشريف والمحدِّث المربّي).

فممَّا ردَّده الشيخ في خطبه عن واقعنا المؤلم، وكتبه بقلمه في كتابه هذا قوله:

«في عالمنا الإسلامي اليوم ردّة سافرة لا تأويل فيها، فيوجد في أكثر الأقطار تيارات منحرفة، وعناصر متطرّفة، ومذاهب هدّامة تخريبية، ماركسيون شيوعيون لادينيون، بهائية، قاديانية، محمديون، قرآنيون... والكلّ يمارس مذهبه وينشر مبادئه، ولكلٍّ مراكز وجمعيات وأنشطة بمرأى ومسمع وعلم من الدول الحاكمة، ولا تراها تهتم بمعاكسة هؤلاء أو مضايقتهم أو اعتقالهم ومحاكمتهم لردّتهم، وتطبيق ما قاله الشارع فيهم، بل العجب هو وجود شخصيات بارزة منهم يحتلُّون مناصب ووظائف عالية في هذه الدول.. ولهم من حرية الفكر والتعبير ما ليس لغيرهم من الإسلاميين»[1].

وكتب أيضاً عن العلمانية يقول:

«وبعد أن ذهب الاستعمار ترك خلفاءه ممن تربَّوا في أحضانه، فنهجوا هم الآخرون نهج الاستعمار، وحاصروا الإسلام، وجعلوه خاصاً بالمسجد والأحوال الشخصية والعبادات.. وأول من طبّق هذا النظام في البلاد الإسلامية: مصطفى كمال أتاتورك اللعين البغيض، فجلب الويل والدمار على المسلمين، وكان من آثاره هذه الحال التي نعيشها جميعاً من

---

(١) نصب الموائد: ٢/ ٤٤.

محاربة الإسلام وشعائره، واقتفاء آثار المستعمرين، والأمر لله وحده»[1].

وكتب عن بعض المدارس العصرية في بعض البلاد العربية يقول:

«أما إذا كانت المدرسة والمُدرِّسون، والجوّ الدراسي على الحالة الراهنة من الفوضى والانحلال والاختلاط، فهي أداة للإفساد وزرع الأفكار الضالّة والمذاهب الإلحادية في المجتمع، وليس هناك مسلم يعرف حقَّ المعرفة جوّ المدارس الحالية يقول بشرعيتها، وما جاء الإلحاد والفساد والتبرُّج والعري والفسق والعهر والرذيلة إلا من المدرسة»[2].

وكتب عن بعض وسائل الإعلام يقول:

«إنّ أعداء الإسلام بعد مؤامرات متوالية أقاموا بين أظهرنا جيلاً غربي الهوية متنكّراً لدينه، وولّوه المراكز المهمة التي منها وسائل الإعلام، ولهذا فهو يبثُّ من خلال هذه الوسائل ما يريده الأعداء.. غير أن المسؤول الأول بالذات هم الدول الحاكمة التي تتحكّم في وسائل الإعلام والتي يجب عليها ـ حمايةً للدين ـ الرقابة الصارمة لكل ما يُنشر أو يُذاع أو يُعرض على الشعب...»[3].

وكتب عن الغشّ يقول:

«الغش ساكنٌ فينا، وفي بيوتنا، وفي وجداننا، وهو يمرح فينا طولاً وعرضاً، فكلٌّ منّا يغشّ الآخر.. وعندما نوسِّع الدائرة نجد أن إدارتنا تعشق الغشّ، والكثير من مسؤولينا يغازلون الغشّ، وبعض من وصلوا

---

(١) نصب الموائد: ١/ ٢٣.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٣٢.
(٣) المرجع السابق: ١/ ٦٨.

المجالس النيابية كان لهم الوصول، بل كان لهم الوصولية على قاطرات الغش. . .»[1].

وكتب عن مخالطة الظَّلَمة فقال:

«إنّ مخالطة ذوي السلطة الظلمة، والميول إليهم، والدخول عليهم، ومحبّتهم طمعاً فيما بأيديهم، أو طلباً للجاه والرياسة، هو من الخطورة بمكان على دين المسلم. ويكفيه خسارة أنه يُحشَر معهم يوم القيامة، وأنه لا يشرب من حوض نبيّنا ﷺ، وأنّه يتبرّأ منه. . .»[2].

وللتذكير فالشيخ يشجب العنف بشدّة ويدعو في كتابه (نصب الموائد) إلى دراسة أسبابه ودواعيه، والتفرقة بين عنف الضعفاء وعنف الأقوياء:

«لأنَّ في بلدنا كما في أمريكا وأوروبا ومختلف بقاع العالم أباطرة العنف، وهم قابعون على أرائك البحبوحة، ويدخنون السيكار الهافاني الغالي. لقد أصبحت البحبوحة أقدر من البؤس على إنتاج شجرة العنف بكلِّ ثمارها المُرَّة، وأغصانها المسمومة، وأوراقها القاتلة، وما الجريمة بأشكالها وأنواعها سوى لون واحد من ألوان العنف المعاصر»[3].

هذا وإنَّ قرّاء شيخنا ينتظرون صدور الجزء الثالث من هذه السلسلة الشيّقة التي يتحفنا بها الشيخ حفظه الله بنوادر وفوائد جليلة من بطون الكتب التي طالعها في مختلف الفنون والعلوم.

* * *

(١) نصب الموائد: ٢/ ٧٦.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ٢٠٦.
(٣) المرجع السابق: ٢/ ٢٦٠.

رابعاً:

من كتبه في الأخلاق والسلوك والوعظ والتصوّف

١ ـ تعليقات على كتاب (تحفة الإخوان في آداب أهل العرفان) للعارف بالله سيدي أحمد الدردير المتوفى سنة ١٢٠٢هـ رحمه الله تعالى:

رسالة، طُبعت بالمطبعة المهدية بتطوان عام ١٣٩٧هـ.

وهو من جملة كتب القوم رضي الله عنهم الخاصَّة في موضوع الأخلاق والمعاملة الطيبة الحسنة التي يسمو إلى معاليها كل منتسب للطرق الصوفية من المريدين.

وفي هذا يقول شيخنا حفظه الله:

«فمبنى طريق القوم هو: التخلِّي عن الرذائل والأخلاق الساقطة، والتحلّي بالفضائل والأوصاف الكريمة، حتى قال بعض كبارهم: **التصوّف كلّه أخلاق، فمَنْ زاد عليك بالأخلاق، زاد عليك بالتصوّف**»[١].

ولهذا فقد اهتمّ بهذه الكتب حتى مَنْ عُرفوا بانتقاداتهم الشديدة للصوفية، يقول في ذلك شيخنا حفظه الله:

«وقد يتعجَّب القارئ ويندهش إذا رأى أمثال الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا يستشهدان بكلام الغزالي ويودُّ الثاني الاعتناء بالإحياء من طرف الخطباء والوعّاظ، ثم يقوم الشيخ جمال الدين القاسمي فيلخّص

---

(١) تحفة الإخوان، ص٣.

(الإحياء)[1] وينشره بين المسلمين. إنّ هذا يُعدُّ من إنصافهم وإقرارهم بالحقيقة، فرحمهم الله تعالى وأثابهم على مقاصدهم الحسنة»[2].

٢ ـ معجزة مع كرامة في كتاب (الشرف المحتَّم) للحافظ السيوطي:

رسالة، طُبعت بالمطبعة المهدية بتطوان عام ١٣٨٥هـ.

وهي رسالة صغيرة في الحجم قال في مقدِّمتها:

«قد أطلعني مولانا الشريف المحدِّث الواعية المطَّلع البحَّاثة شيخي وسيدي عبد العزيز بن الصدِّيق حفظه الله ورعاه على رسالة لطيفة... وقد كدتُ أطيرُ فرحاً بهذه الرسالة، لأنها في موضوع هام مفيد لرجال العلم...».

فحقَّق شيخنا هذه الرسالة السيوطية، وطبعها لإفادة جمهور المسلمين بما فيها من فوائد جليلة.

ومن الأمور التي استدركها شيخنا على الحافظ السيوطي رحمه الله:

حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ مرَّ بقبر موسى عليه الصلاة والسلام، وهو قائم يصلّي فيه. قال السيوطي: أخرجه أبو نعيم، وقال شيخنا معقّباً: لقد أبعد المصنف رحمه الله تعالى، فإنَّ الحديث أخرجه مسلم في المناقب من صحيحه (٧/ ١٠٦)، والنسائي في كتاب الصلاة من سننه (٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦)، كلاهما من طرق عن أنس،

---

(١) موعظة المؤمنين، وكذلك اختصر (قوت القلوب) لأبي طالب المكي في كتابه (الوعظ المطلوب).

(٢) تحفة الإخوان، ص٤.

فإيراد المصنّف حديث ابن عباس من (الحلية) مع ضعفه وتركه ما في الصحيح عن أنس ليس بجيد. اهـ.

حديث أنس: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**الأنبياء أحياء في قبورهم يصلّون**». قال السيوطي: أخرجه أبو يعلى، وقال شيخنا معقّباً: «وكذا البيهقي وسنده صحيح.. وفي صحيح مسلم في أواخر الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الإسراء: «**وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلّي**».. إلى آخر الحديث، قال: «وفات المصنّف رحمه الله تعالى فلم يذكر هنا حديث أوْس بن أوس الصريح في الموضوع أيضاً: «**إنَّ اللهَ حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**». أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم، وصحَّحه على شرط البخاري، وسلَّمه الذهبي، وصحَّحه ابن خزيمة وابن حبان والقرطبي والنووي وابن دحية وحسَّنه المنذري وابن العربي والسخاوي وغيرهم». اهـ.

ثم قال شيخنا محقّقاً لمسألة حياة الأنبياء بعد مماتهم: «وقد نصَّ الحُفَّاظ على تواتر أحاديث حياة الأنبياء في قبورهم، فلا يخالف في ذلك مَنْ في قلبه ذرّة من إيمان.. بل قد ثبتت الحياة بعد الموت لأناس ليسوا بأنبياء منهم من تكلَّم، ومنهم من فتح عينيه، ومنهم من شُوهد في قبره يصلّي، ومنهم من كان يذكر الله تعالى، ومنهم من كان يقرأ القرآن.. والحديث المخرَّج في جامع الترمذي في الرجل الذي سمع قراءة سورة تبارك من قبر يؤيِّد ذلك، ولابن أبي الدنيا كتاب (من عاش بعد الموت)، وانظر (الرسالة القشيرية): (ص١٨٧) من باب الكرامات، و(دلائل النبوّة) للحافظ أبي نعيم (ص٥١١، ٥١٢)، وسنفرد لذلك كتاباً إن شاء الله». اهـ.

فأين هو الكتاب يا ترى؟ هل هو من جملة المخطوطات التليدية التي ليس لنا علم بها أم أنَّ هذا المشروع لم يكتب له التمام؟.

٣ ـ زاد المتّقين في صحيح أذكار وأدعية سيّد المرسلين:

وكان اسمها (الوظيفة النبوية) كما في طبعتها الأولى بطنجة، واقترح الأستاذ الشيخ مجد مكي تغيير عنوانها إلى (زاد المتقين)، وقام بخدمتها وترقيمها والعناية بها، وطبعها في دار ابن حزم ببيروت.

وهي بحقّ من الوظائف النبوية النيّرة التي لها شأن عظيم في إصلاح القلوب وربطها بخالقها وبارئها سبحانه.

قال شيخنا حفظه الله في المقدّمة: «ولذكر الله ثمرات يحسُّها الذاكر، ويجدُ لها آثاراً في شعوره الباطني، وفي تجدُّد الحياة وتغيُّرها. وأنت ـ أيها القارئ لهذه الأذكار ـ لن تعدم مثل هذه الآثار، فسوف ترى من تجدُّد الإيمان وقوّة اليقين، ومحبة جناب المولى الكريم وحضرة النبيِّ المصطفى ﷺ ما لا يرقى إلى وصفه تعبير»[1].

طبع الكتيِّب في طبعة خامسة له بدار ابن حزم ببيروت عام ١٤١٤هـ.

٤ ـ مشاهد الموت وأهوال البرزخ والقبور:

طبع قديماً بالمغرب، ثم بدار ابن حزم ببيروت عام ١٤١٤هـ.

وهو كتاب في الرقائق يذكر قارئه بما يجب على المرء التفكير فيه من أمور الآخرة وأهوالها المنتظرة، يظهر من خلاله شيخنا واعظاً مؤثّراً وبليغاً، حفظه الله.

قال في المقدّمة:

«فلا أدري ماذا يريد عَبَدة المادة وأيَّ شيءٍ ينتظرون من هذه الحياة الصاخبة، فهل يظنّون أنّهم سيخلدون في هذه الدار؟ لا أظنّهم يعتقدون

---

(١) زاد المتقين، ص٨.

ذلك، وقد فقدوا من بين ظهرانيهم أحبّاءهم وأعزَّ الناس إليهم من الآباء والأمهات والأبناء والأزواج والإخوة والأخوات، ورأوا غياب أجيال وأمم وقد يتَّموا أولادهم وأيّموا نساءَهم، واقتُسمت أموالهم، وأصبحوا رميماً في تخوم الأرض كأن لم يغنوا بالأمس. إنه والله الغرور فلنحذر المخادعة بالآمال الباطلة والأماني الكاذبة، فإنّ الموت أقرب إلى أحدنا من شرك نعله»[1].

كما أنّ من الأبحاث المهمة فيه مبحث: اختلاف الناس في أحوال الميت، وأسباب عذاب القبر وأنواعه.

والكتاب مذيَّل بفهرست للأحاديث الواردة فيه.

٥ ـ الفوائد والعبر من عجائب الأقدمين:

رسالة، طُبعت قديماً بالمغرب، ثم طُبعت في مجلد متوسط بزيادات بدار البشائر الإسلامية ببيروت عام ١٤٢٠هـ.

وكان شيخنا قد طبع بطنجة كتابه هذا تحت عنوان: من عجائب الأقدمين، إلا أن الطبعة الأخيرة كانت أكثر تنقيحاً وزيادة من سابقتها.

والكتاب يعنى بتاريخ الوقائع الاجتماعية القديمة، وعجائبها حسب ما ورد من صحيح السنّة النبويّة المطهّرة..

فهناك بعض المظاهر الاجتماعية يصعب على الباحثين في العلوم الإنسانية معرفة أسبابها الأولى.. وباستعانتنا بحديث رسول الله ﷺ المتعلق بهذا الموضوع الشيّق يمكننا العثور على بعض الأجوبة الشافية عن أسئلة شائكة.

---

(١) مشاهد الموت، ص٦.

يقول شيخنا حفظه الله في المقدّمة:

«إنّها أحاديث وقصص نبوية صحيحة مشروحة شرحاً واضحاً مبسَّطاً، ومعقّبة بما يؤخذ منها من فوائد وأحكام وعبر تُثبت فيها عجائب القدامى بداية من عهد خلق آدم عليه السلام حتى نهاية أيام الجاهلية.

فمن جملة هذه الأسئلة الشائكة على سبيل المثال: كيف ظهرت سنّة إحراق جثث الموتى في بعض البلاد الآسيوية؟.

والجواب قد نجده في حديث[1] أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كان رجل يُسرف على نفسه، فلمّا حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا متُّ فأحرقوني ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذّبني عذاباً ما عذّبه أحداً. فلمّا مات فُعِلَ به ذلك، فأمر الله الأرضَ فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملكَ على ما صنعت؟ فقال: يا ربِّ خشيتك، وفي رواية: يا رب مخافتك، فغفر له».

ففي هذا الحديث أنَّ مصدر إحراق الجثث كان هو الخوف من البعث بعد الموت، والوجل من المحاسبة أمام الله جلَّت قدرته على ما عمل المرء في حياته.

فيكون هذا التفسير من جملة التفسيرات التي ينبغي ذكرها عند شرحنا لهذه الظاهرة الاجتماعية العتيقة.

٦ ـ المرأة المتبرّجة وأثرها السيِّئ في الأمة:

رسالة طُبعت في المرة الأولى بالمغرب، وفي المرة الثانية بدار ابن حزم ببيروت عام ١٤١١هـ.

---

(١) انظر: الفوائد والعبر من عجائب الأقدمين، ص٩١.

يعدُّ هذا المؤلَّف من الأبحاث المهمة التي صدرت عن الشيخ مبكِّراً خاصَّة وأنَّ موضوع المرأة يحتل الصدارة بعد موضوع الحرية في سُلَّم الأولويات الفكرية في العالم.

ولقد أخبرني سيدي عبد الله أنَّ هذا الكتاب قد ترجم والحمد لله إلى عدّة لغات أجنبية.

والكتاب دستور عملي للنساء، ينظّم كيفية احتجابهنّ عن الرجال وكيفية خروجهن من البيت، والأسباب الشرعية التي تسمح لهنّ بالخروج كما بيَّن الشيخ من خلال هذا الكتاب كيف أنَّ الشرع الحكيم في جُلِّ ـ إن لم نقل كلّ ـ الأحكام الشرعية، يراعي مسألة اختلاط الرجال بالنساء ويعتبر ذلك إيذاناً بموت الدين وأهله.

كما أننا نجد في مقدّمة الكتاب تمهيداً تاريخياً مهماً بيَّن من خلاله الشيخ كيف كانت المرأة في عصور كلّ من الهنود واليونانيين واليهود والروم والمسيحيين وعرب الجاهلية الغابرة، وكيف أعاد الله سبحانه مكانة المرأة بالإسلام إلى وضعها الطبيعي الأصيل، لتأتي بعد عهود الإسلام الزاهية جاهلية القرن العشرين، فتصبح المرأة داخل المجتمعات الغربية وبالأخص الأمريكية والفرنسية والبريطانية من جملة المتاع الشهوانية التي تُعرض للإعلانات التجارية، أو لتزيين برامج التلفزة بصوتها الناعم وجسدها الفاتن، أو لتشغل دور خليلات رجال الأعمال في مختلف إدارات البلاد.

كما بيَّن حفظه الله تعالى من خلال كلمات للغربيين المعاصرين من دكاترة وأساتذة وعلماء الغرب، أنّ المجتمع الغربي اليوم يحنُّ إلى تعاليم الإسلام من حيث لا يشعر، وأنَّ مردَّه إلى الإسلام لا محالة، وأن للكافرين الذين لا يقرُّون ما للإسلام من محامد حالاً ومآلاً عذاب النار في الدنيا قبل الآخرة.

وفي آخر الكتاب فهرست للأحاديث الواردة في الكتاب، وكلّها أحاديث يصحّحها شيخنا أو يُحسّنها.

٧ ـ القدس الشريف وكيف احتلّه الصهاينة؟

طبع بالمطبعة المهدية بتطوان عام ١٣٨٧هـ الموافق لسنة ١٩٦٧م.

ففي سنة ١٩٦٦م وبعد زيارته لحرم القدس الشريف خلص شيخنا حفظه الله إلى أنَّ هذه البقعة المباركة مهدَّدة بالسَّلب لما رآه فيها من انتهاكات ومخالفات ظاهرة وجليّة.

وفي السنة الموالية، كان الاحتلال الإسرائيلي قد اجتاح منطقة القدس الشريف وما جاورها، مدشناً عهداً جديداً للهيمنة الصهيونية الآثمة.

كتب سيدي عبد الله رسالته هاته للوقوف على أسباب الهزيمة الكبرى التي مُنيت بها الأمة الإسلامية قاطبة والأمة الفلسطينية خاصة، فقال في المقدمة:

«فقد يتساءل كثير من الناس عن سبب انهزام العرب وانتصار اليهود عليهم واحتلالهم جملة من بلادهم ويتعجّبون من ذلك، ولاسيما ما حصل في هذه الأيام الأخيرة في مفتتح ربيع الأول من هذه السنة ١٣٨٧هـ من تلك الفتنة العمياء الصمَّاء التي كان من جرّائها وأثرها السيِّئ تدمير البلاد العربية وتخريبها وتحطيمها وعلى الخصوص الأردنيين وسكان القدس الشريف وما جاوره، فقد أصيبوا بلأواء ومحن وبلايا مما أثّر تأثيراً بالغاً في قلوب العرب والمسلمين في سائر أنحاء المعمورة...»[1].

* * *

(١) القدس الشريف، ص٣.

خامساً:

من كتبه في التاريخ والتراجم والسِّيَر

١ ـ حياة الشيخ سيِّدي أحمد بن الصِّدِّيق:

طبع بالمطبعة المهدية بتطوان عام ١٣٨٣هـ.

من الكتب النفيسة لشيخنا كتابه هذا حول حياة شيخه وأستاذه الحافظ سيدي أحمد رحمه الله، ذلك أنّ الذين ترجموا لأبي الفيض لم يستوفوا حقّه كاملاً، بل كان بعضهم مُجْحفاً لحقِّه، غير مُكْترث بمنزلته ومستواه، ناسباً إياه للشركيّات والبدعيات، وكأنّه رحمه الله تعالى من حاملي الخرافة والشعوذة لا الحديث والسنّة[(١)].

وأصل الكتاب هو: (الأنيس والرفيق بمآثر الشيخ سيدي أحمد بن الصدّيق)، لكن شيخنا اختصره تسهيلاً على القرّاء.. وقبل ذلك أخرج

---

(١) وممن ترجم شيخ شيخنا سيدي أحمد رحمه الله على هذه الطريقة البائدة الأستاذ الحسن بن علي الكتاني غفر الله له حيث قال: وهو صوفي يؤمن بالخرافات من الكرامات المزعومة وما لا يصدقه عقل، مع دفاعه عن القبورية وأصحابها وسائر مراسيمها من توسُّل واستغاثة وسائر مظاهر الشرك.
فكيف يجرؤ هذا الكتّاني على نسب الشرك إلى إمام من أئمة التوحيد في العصر الحديث؟ وكم كنت فرحاً بمجهوده في طبع كتاب: (توجيه الأنظار)، وهو من أنفس ما ألّف الحافظ سيدي أحمد رحمه الله لكن بعدما اقْتَنَيْتُ الكتاب، وقرأت الترجمة تغيّرت كثيراً وتغيّظت لما قرأته عن سيدي ومولاي أحمد بن الصدّيق رحمه الله.. نعوذ بالله من الحرمان بعد العطاء، فما أقدم عليه الكتّاني الشاب إلا تقليداً لما ذهب إليه أعداء سيدي أحمد بن الصدّيق رحمه الله في المغرب..

كتاباً ملخّصاً من الأنيس والرفيق خاصاً في كرامات ومبشّرات الحافظ سيدي أحمد رحمه الله سمّاه: (تحفة القاري بذكر بعض مبشِّرات وكرامات سيدي أحمد بن الصدّيق الغماري).

٢ ـ المنح الإلـٰهيَّة بالمبشِّرات التليديّـة:

طُبع هذا الكتاب مع كتاب (حياة الشيخ سيدي أحمد بن الصديق) ليكون كالثمرة لحسن نيّة شيخنا وطويَّتِه، وحُسن صحبته لشيخه وأستاذه، فقد ضمَّنه العديد من البشارات التي رآها بنفسه أو رآها بعض إخوانه ومريديه.

ثم إنَّ شيخنا في الأخير قد نَدِمَ على نشره لهذه الرسالة لما قد سبَّبته له من المتاعب مع منكري الكرامات من أتباع المدرسة العقلانية.

ويلاحظ من خلال هذه الرسالة أنّه في السنة الواحدة قد يرى شيخنا رسول الله ﷺ أكثر من مرّتين، بل قد يصل إكرام الله له بأن يريه وجه الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام في شهر واحد مرّتين وأكثر، كما وقع له في شهر من عام ١٣٨٣هـ.

فهذا الوابل من الرؤى ليؤكِّد ـ بفضل الله وواسع كرمه وعطائه ـ مدى السكينة التي يعيشها شيخنا خاصة نفسه، وجوّ الراحة القلبية والطمأنينة المتجذّرة في الوجدان التي أنعم الله بها على أبي الفتوح حفظه الله تعالى.

٣ ـ تحفة القاري بذكر بعض كرامات ومبشِّرات سيِّدي أحمد بن الصدّيق الغُماري:

طُبعت الرسالة بالمطبعة المهدية بتطوان عام ١٣٨٢هـ.

رسالة صغيرة جرَّد فيها شيخنا فصلين من فصول كتابه (حياة الشيخ

سيدي أحمد بن الصدّيق):

ولقد أثار هذا الكتاب زَوْبعةً لدى بعض الجهلة، فرموا شيخنا حفظه الله بأنواع من البهتان.

قال سيدي عبد الله في ذلك: «وقد تطاول علينا بعض الجهلة من أحواز تطوان، فحكم علينا بالكفر لما رآنا ذكرنا في كتابنا (تحفة القاري) أنّ بعض الصالحين رأى الله تعالى مع ملائكته وأوليائه.. وقال: إنَّ صاحب هذا الكتاب زنديق، وعملوا مؤتمراً هناك، وأقاموا ضجَّة في أربعاء بني حسَّان على ذلك، وقد كتبت إليهم رسالة بيَّنتُ لهم جهلهم وحمقهم وبُعدهم البُعْدَ الشاسع عن العلم والمعرفة مع أنَّ المسألة متّفق عليها لا يوجد فيها خلاف عند أهل السنّة[1].

٤ ـ دَرُّ الغَمام الرقيق برسائل السيد أحمد بن الصدِّيق:

مجلّد متوسّط، طُبع في بيروت دون تعيين الدار التي قامت بطباعته أو توزيعه، وذلك عام ١٤٢١هـ.

والسبب في ذلك واضح، وهو تخوُّف أصحاب المطابع من بعض المواقف المحرجة للشيخ الحافظ سيدي أحمد رحمه الله التي تأتي كالصاعقة على مخالفيه فلا تبقي صديقاً يسامح، ولا رفيقاً يجاري ويصالح.

ولقد استمرَّت مذاكرة شيخنا لسيدي أحمد على مستوى المراسلة بعدما غادر هذا الأخير المغرب إلى مصر، فكان سيدي عبد الله يستفسر عن كلِّ ما أشكل فهمه فيجيبه شيخه الجواب الشافي في المئين من المسائل التي جمعها شيخنا في هذا الكتاب القيّم لينتفع بما فيه طلاّب العلم والحديث.

---

(١) انظر المنح الإلـٰهية، ص١٤.

كما أنَّ رسائل كان يبعثها الشيخ سيدي أحمد إلى تلميذه وهو في سَلاَ من جملة مادة هذا الكتاب النفيس.

كانت موضوعات المراسلة تدور حول عدّة محاور كأصول الفقه، وعلوم الحديث النبويّ، والتوحيد وما يتعلّق به، والفقه الإسلامي ومذاهب الأئمة، والرؤيا والتعبير، والكتب العلمية وتاريخ الأعلام، والجرح والتعديل، ومنوّعات كثيرة.

ومن الأحاديث التي استدلّ بها الحافظ سيدي أحمد رحمه الله في رسائله هاته وضعّفها شيخنا حفظه الله، حديث: «**كتب عليَّ قيام الليل ولم يكتب عليكم**».

قال شيخنا سيدي عبد الله: ولا يصح شيء من ذلك، ومن قال باختصاصه ﷺ بوجوب قيام الليل استدلّ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩][١].

وحديث: «**أُمرت بالأضحية ولم تؤمروا بها**».

قال شيخنا حفظه الله: في سنده جابر الجعفي وهو ضعيف، وله طرق أخرى.. وكلّها ضعيفة[٢].

وحديث: «**الكذب مجانب للإيمان**».

قال شيخنا حفظه الله: سنده ضعيف والصحيح أنّه موقوف[٣].

وكون الأعمال والصلاة تلفّ ويُضرب بها وجه صاحبها.

---

(١) در الغمام الرقيق، حاشية ص١٩.
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) المرجع السابق، حاشية ص٤٦.

قال شيخنا حفظه الله: من حديث أنس.. وفيه عبَّاد بن كثير، وقد أجمعوا على ضعفه، ونحوه عن عبادة بن الصامت.. وسنده ضعيف أيضاً[1].

وحديث: «**إذا حجَّ من حرام وقال: لبيك، قيل له: لا لبيك ولا سَعْدَيْك، وحجُّك مردودٌ عليك**».

قال شيخنا حفظه الله: فيه سليمان بن داود اليمامي وهو ضعيف[2].

وهي أحاديث تدخل بمجموعها في باب الفضائل أو المغيَّبات يذكرها الحافظ سيدي أحمد رحمه الله استئناساً أو دون نسبتها لرسول الله ﷺ، وإنَّ نسبها للرسول ﷺ فلصحة معناها دون مبناها.

لكنّ الأمانة العلمية التي يحافظ عليها شيخنا سيدي عبد الله تقوده إلى التدقيق في كلّ مسألة مهما صغُرت في الأعين ليظلّ الحق هو الديدن الوحيد للمريد الصادق.

بل إنَّ هذا التحرّي من جملة ما وصَّى به الحافظ تلميذه في إحدى رسائله قائلاً:

«فعليكَ بالاجتهاد في كلّ شيء. فإذا قال الحافظ: حديث صحيح. فقوله مقبول إلاّ إذا دلَّ الدليل على خلافه فيكون واهماً، والحقُّ ما دلَّ عليه الدليل ترمذياً كان أو بخارياً أو دارقطنياً أو من كان»[3].

ولهذا نجد شيخنا سيدي عبد الله يعقّب على شيخه في بعض المسائل نذكر منها:

---

(١) درر الغمام الرقيق، حاشية، ص٥٩.
(٢) المرجع السابق، حاشية ص٥٩.
(٣) در الغمام الرقيق، حاشية ص٦٠ و٦١.

ـ قول شيخه رحمه الله: والحافظ العراقي وتلميذه الحافظ ليس عندهما جرأة على التصريح بوضع الحديث إلا في القليل النادر، وذلك ضعف في النفس لا يليق بأمثالهما.

قال شيخنا حفظه الله معقّباً: بل هو من باب الورع والاحتياط[1].

ـ وقوله: إنَّ الناس اختلفوا في الجنّة التي أُهبط منها آدم عليه السلام، وأنها عنده جنة كانت بناحية العراق أو بالهند، وله في ذلك أدلّة كثيرة.

قال شيخنا حفظه الله معقّباً: ولكنها ـ أي الأدلة ـ معارضة بأدلة أقوى منها كتاباً وسنّة، فالذي نختاره أنها الجنة المعهودة كما هو قول الجمهور[2].

ـ وقوله: ومسألة الجلوس على القبور يُراد بها قضاء الحاجة والتغوّط.

قال شيخنا حفظه الله معقّباً: هذا وإن كان محتملاً فالظاهر هو الجلوس المعهود لأحاديث أخرى[3].

ـ وقوله: ولم يذكر الله تعالى ولا رسوله ﷺ حرفاً مما عدا هذه الأشياء ـ يعني في الزكاة ـ إلا الملح والعسل في أحاديث ضعيفة.

قال شيخنا حفظه الله معقّباً: بل وردت في العسل أحاديث بعضها حسنة أو صحيحة[4].

---

(١) رد الغمام الرفيق، حاشية ص٦٩.
(٢) المرجع السابق، حاشية ص٩٦.
(٣) المرجع السابق، حاشية ص١٣٨.
(٤) المرجع السابق، حاشية ص١٤٤.

- وقوله: والبنوك الموجودة الآن بالمغرب جلُّها للكفار الحربيين، لكنهم ليسوا في دار حرب.

قال شيخنا حفظه الله معقّباً: «يرحم الله أستاذنا فقد خالف هنا مواقفه ضد العصريين المفسدين، فما قاله غير مُسَلَّم، فإنَّه نصَّ العلماء على أنَّ كلَّ قوم لا يحكمون شرع الله كانوا أهل حرب»[1].

- وقوله: «إلاّ أنَّ أدلّة القول بالفناء إما للنار نفسها كما يقول ابن القيم، أو للألم مع بقاء صورة العذاب، كما يقول الشيخ الأكبر أرجح».

قال شيخنا حفظه الله معقّباً: «يرحم الله شيخنا الكريم كيف يتّبع هؤلاء الأعلام في هذه القضية، وليس لهم مستند إلا آثار عن بعض السلف جاءت في مقابلة نصوص القرآن القاطعة والسنّة المتواترة، ويرجح ذلك مع أنها من الشواذ الغريبة»[2]؟!!.

وهكذا تكون الخلافة العلمية، وهكذا يكون الأدب بين التلميذ وشيخه، أدب لا يزيغ عن الوسطية ولا يميل عن الحق.

كما أنَّ في هذه الرسائل توجيهات شخصية تهمّ حياة شيخنا حفظه الله تعالى.

فجواباً على رسالة من سيدي عبد الله يطلب فيها من شيخه النصيحة، أرسل سيدي أحمد إليه قائلاً: «أما النصيحة التي طلبتها، فما نحن أهلاً لننصح أحداً، بل نحن محتاجون إلى من ينصحنا، وإذا كان ولا بدّ، فنصيحتي التمسُّك بما أنت عليه من حبِّ الله ورسوله ﷺ، واعمل

---

(١) در الغمام الرفيق، حاشية ص٢٢٤.

(٢) المرجع السابق، حاشية ص٢٢٦.

بالكتاب والسنّة، ونبذ التقليد، ومحاربة ومعاداة أعداء الله وموالاة أوليائه، والابتعاد عن مصايد الدنيا الغرّارة الصارفة وجه المقبل على الله إلى الإقبال على ما يبعد من رضاه ويقرب من سخطه.

وشدَّ يدك على القديم، وإيَّاك أن يغرَّك الشيطان، فيدلّك على خلاف ما أنت عليه». اهـ.

وأرسل سيدي أحمد رحمه الله إلى شيخنا حفظه الله يقول له: «والمغرب محتاج إلى من ينشر فيه الدعوة إلى الله وإلى رسوله ﷺ وإلى سنّته، وليس الآن من يقوم بذلك مثلك ومثل سيدي محمد البقالي، وإذا كان محيي السنّة في هذا الوقت له أجر مئة شهيد مع إحيائه إيّاها في نفسه، فكيف بمن يسعى في إحيائها بين الجمهور؟!». اهـ.

ونلمس من هذه الكلمات أنّ سيدي عبد الله التليدي وسيدي محمد البقالي من المحبوبين لدى الحافظ العارف سيدي أحمد الذي لم يكن له همٌّ آخر غير الدعوة إلى الله وإلى سنّة حبيبه سيدنا محمّد ﷺ.

وكتب إليه يوماً حول سكنى البادية ومدى أهميتها بالنسبة لشيخنا حفظه الله، فقال:

«ومسألة الإقامة بالبادية، كنت أشرتُ عليك مراراً، فإنّك إذا وجدت الشرط في قبيلة جمعت بين مصالح متعدِّدة منها: الفرار من الفتن، ومنها: الانقطاع للمطالعة، ومنها: نشر العلم وبثُّ السنّة، وفي هذا خيرٌ عظيم، ريثما يصل الوقت المنتظر، ويفتح الله بالفرج»[1].

وقد أكرمني الله بمطالعة (در الغمام) ونسخه قبل طبعه، فاستفدتُ

(١) در الغمام الرقيق برسائل السيد أحمد بن الصدّيق، ص١٩٢.

منه غاية الاستفادة والحمد لله.

إلاّ أنني قرأت لبعض خصوم شيخنا ممَّن تتلمذ للسيد الحافظ سيدي أحمد بن الصدِّيق رحمه الله وراسله مراراً لما كان في مصر، يعاتب شيخنا سيدي عبد الله على عدم طلبه للإذن في إيراد رسائل سيدي أحمد إليه ضمن (در الغمام الرقيق)، كأنَّ شيخنا قد أورد في هذا المؤلَّف المسائل الشخصية والمشكلات العائلية التي كانت تتخلل تلك المراسلة العلمية والحديثية بين الشيخ الصِّدِّيقي وتلامذته. فبدلاً من أن يشكر هذا الناقد صنيع شيخنا في كتابه (در الغمام الرقيق) الذي التزم فيه بذكر المسائل العلمية البحتة والمناقشات الفقهية الخالصة دون أن يذكر الشؤون الخاصة والشخصية لأي تلميذ كان له حظ من مراسلة شيخه سيدي أحمد رحمه الله تعالى، نراه يسيء الظن، ويبخل عن جمهور القرّاء، وهو المتظاهر ببذل العلم ونشر المعرفة.

فإذا كانت رسائل هذا الناقد قد تصل إلى (٣٦) رسالة كما رقّمها في رسالة بخطّ يده، فإنّ شيخنا قد أورد رسائل أخرى لغيره، وهي وإن كانت قليلة فلم يتكلَّم أحد بسوء أو نقد أو مطالبة بحقّ الاستئذان.. بل على العكس من ذلك كان الفرح عامّاً من كل تلامذة الشيخ الحافظ سيدي أحمد بن الصدّيق عند طبع هذا الكتاب التاريخي القيّم، إذ عدم نشر مثل هذه الرسائل نكران واضح لجميل أحد أساطين العلم في العصر الحديث.. رحمه الله تعالى.

٥ ـ المبشَّرون بالجنّة:

رسالة، طُبعت قديماً بالمغرب، ثم بدار ابن حزم ببيروت عام ١٤١٧هـ.

موضوع هذه الرسالة يدور حول المبشَّرين بالجنّة، وهي خلاصة

جمعه للأحاديث والآثار حول من ثبتت بشارته في حياته أو بعد موته بدخوله الجنة بدءاً من عهد الصحابة إلى عصرنا الحاضر.

أما المصادر التي اعتمدها شيخنا في جرده لأسامي مَنْ ثبتت بشارته وأنـه من أهل الجنة إن شاء الله: تاريخ بغداد، وفيات الأعيان، تذكرة الحفاظ، طبقات الحنابلة، طبقات الشافعية، حلية الأولياء، معرفة القرّاء، الديباج المذهب، نَيْل الابتهاج، عنوان الدراية للغبريني، البدر الطالع للشوكاني، فوات الوفيات لابن الكتبي، الرسالة القشيرية، إحياء علوم الدين، الرحلة في طلب الحديث للخطيب، جامع بيان العلم لابن عبد البر، المنهج الأحمد للعليمي.. إلى غير ذلك من المصادر والكتب.

٦ ـ المُطْرب بمشاهير أولياء المغرب:

رسالة، طُبعت مرتين في المغرب قديماً، ثم طُبعت على نفقة دار الأمان بالرباط في مجلد متوسط عام ١٤٢١هـ.

وهو من الكتب القيّمـة التي رأت النـور مجدَّداً بزيـادات جديدة ومفيدة، بعد الطبعة الأولى والثانية.. ترجم من خلاله شيخنا حفظه الله لثلّة من مشاهير أولياء الله الربّانيين المغاربة بالإضافة إلى تراجم بعض العلماء والفقهاء الذين عرفـوا عموماً باهتماماتهم العلميـة؛ كالحافظ سـيدي أبي علي الصدفي، والعلاّمة سيدي دراس الفاسي، والعلاّمـة سيدي عبد الجليل القَصْري، والعلاّمة قطب الدين القسطلاني، والعلاّمة ابن غازي في آخرين..

إنها مساهمة من شيخنا سيِّدي عبد الله في التراث التربوي السلوكي بعدما نال بحقّ وبباطل العديد من الانتقادات والتجريحات.

قال شيخنا في المقدّمة: «وفي التصوُّف حقٌّ وباطل، وفي الزاوية مدٌّ وجَزْرٌ، ونؤكِّد لإخوتنا أننا نقتنع تماماً أن الزاوية بعد سقوط الدولة

السَّعدية، ضَعُفَ أمرها ونشاط أهلها، حتى جاء عصر مولاي العربي الدرقاوي، فأحياها بإخلاصه وصدقه، وانتشرت الطريق، وجُدِّدت الزوايا في سائر أنحاء المغرب، وأصبح لها سوقٌ نافقة، حتى جاء عصرنا الحاضر وقبله بعهد قريب، فصارت إلى تقوقع وتواكلية وفساد، وصار أغلب أهلها إلى خمول وتَدْجيل واستغلال وعمالة. . كل هذا لا ننكر منه أمراً، ودعوتنا أن نكون منصفين وإنسانيين، ننشد الخلاص الإنساني في النماذج الحيَّة والتجارب الغنية في التاريخ لا غير»[١].

وإذا كتب شيخنا عن مشاهير أولياء المغرب، فإنه يكتب عن اطّلاع ووقوف عند كلّ معلمة من معالم التصوّف الإسلامي في المغرب العربي.

وإذا كان هذا الكتاب قد ترجم فيه شيخنا للرجال دون النساء، فقد راودتني فكرة جمع صالحات من مدينة فاس انطلاقاً من كتاب سلوة الأنفاس للتعريف بالصالحات المغربيات رحمة الله عليهنّ جميعاً، فكانت رسالة متواضعة سمّيتها: (رفع البأس بذكر صالحات من مدينة فاس)، نالت ـ ولله الحمد ـ إعجاب شيخنا، فقدّم لها مقدّمة نرجو الله ببركتها أن تُطبع وتُنشر.

* * *

(١) المطرب بمشاهير أولياء المغرب، ص٨.

سادساً:

من كتبه في الردود والمناقشات العلمية

١ ـ الصارم المبيد لما زعمه المبتدع العنيد من الضلالات في شرح كلمة التوحيد.

رسالة، طُبعت بدار العهد الجديد بمصر عام ١٣٨٠هـ، وهو أول مؤلّفاته التي ظهرت لعالم المطبوعات، وكان ذلك قبيل وفاة سيدي أحمد بن الصدّيق بشهور.

وهو كتاب ردَّ فيه على شيخه الزمزمي سيدي محمد رحمه الله في كتابه (شرح كلمة التوحيد) في العقيدة، حين حكم على أكثر عوام المسلمين بالشرك بالله، وبطلان إيمانهم، حيث قال في كتابه: بأنَّ من اعتقد في معنى لا إلـه إلا الله: لا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا نافع ولا ضارّ إلا الله، لا يكون بذلك مؤمناً، بل لا يخلو من شرك، فردَّ عليه شيخنا ـ حفظه الله ـ وفنَّد كلامه بأدلّة ناصعة مفحمة.

ونظراً للتحقيقات المفيدة التي جاءت خلال هذا الردّ الصارم والمبيد، ارتأيت اختصار الرسالة بجرد بعض الفوائد العقدية، واخترتُ للرسالة الوليدة عنواناً هو: (القول المفيد من الصارم المبيد) فإلى القارئ بعض هذه الفوائد:

ـ كان سيدنا رسول الله ﷺ يكتفي من الصحابة بالإقرار لله بالوحدانية، وله ﷺ بالرسالة إجمالاً، ثم لا يزيد على ذلك، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة المعروفة لكافة أهل العلم، وعلى فرض أنّ قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] يدلّ على ذلـك مع أنـه خلاف الواقع،

فلا يوجد في الدنيا مسلم يجهل معنى لا إلـه إلا الله أو معنى الإلـه. فالإلـه معلومٌ عند المسلمين ضرورة، وإن اختلفت تعابيرهم في معنى لا إلـه إلا الله، وتباينت كلماتهم في ذلك.

فالجميع يعلم أنَّ الله تعالى هو المستحقّ للعبادة لا سواه، وإن لم يُحسنوا التعبير عن ذلك، فمن أجاب بأنه لا خالق إلا الله أو لا رازق إلا الله أو لا موجود معه أو لا ربَّ سواه، فالجميع يحوم حول المعنى الذي لا يصحُّ الإيمان إلاّ بمعرفته، وهو أنَّ معنى لا إلـه إلا الله: لا معبود بحقٍّ سوى الله، لأنه إذا كان هو الخالق الرازق الذي لا موجود معه في هذه الصفات فهو المستحقُّ للعبادة وحده.

وفرقٌ كبيرٌ بين الموحِّدين الذين ولدوا بين ظهراني المسلمين، وبين المشركين الذين كانوا يعبدون الأوثان والأحجار، ويسجدون للأخشاب، ويعتقدون النفع والضرر في ذلك كما ذمَّهم الله تعالى به، وأنكر عليهم في كتابه العزيز.

فاعتراف المشركين بالألوهية ليس كاعتراف الموحِّدين؛ لأنَّ المشركين اتّخذوا مع الله آلهة، وعبدوا سواه، ووصفوا أصنامهم بأمور لا يستحقّها إلا الله تعالى. والمسلم لم يفعل ذلك، ومعاذ الله أن يصدر منه، والمشركون لم يكونوا مُصدِّقين برسل الله وأنبيائه وكتبه، ولا مؤمنين بالبعث والقيامة، والمؤمنون بخلاف ذلك.

ـ معرفة الله عزَّ وجلّ فطرية ضرورية لا تتوقف على استدلال ولا نظر، لقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: ٣٠]، فالفطرة المراد بها: الإسلام، كما قال أبو هريرة ومجاهد وقتادة وغيرهم.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

رسـول الله ﷺ: «مـا من مولودٍ إلاّ يولـدُ على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء؟»، ثم يقول: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، فهذا الحديث قاصمٌ لظهور من يحكم على عوام المسلمين ببطلان إيمانهم وفساده، لكونهم لا يفهمون معنى الشهادة ولا حقيقة الإلـٰه في نظره ورأيه مع أنّ ذلك لهم ضروري.

وفي المسند وصحيح مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال في خطبة لـه: «إنَّ الله َعـزَّ وجلّ أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم مما علّمني في يومي هذا: كل مالٍ نحلته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلّتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»، الحديث بطوله. ففي هذا الحديث الشريف بيانٌ جليٌّ على أنَّ معرفة الله تعالى فطرية، وأنَّ العباد كلَّهم مجبولون على الحنيفية، وأنَّ ما صدر منهم من الإشراك بالله تعالى وما أحدثوه من أضاليل وأباطيل إنما هي طارئة عليهم بتسويل الشيطان ذلك لهم. والمسلمون بخلاف ذلك وإن جهلوا من دينهم ما جهلوا. .

٢ ـ درء الفساد بالانتصار لأهل السنّة وفري أوداج أهل البدعة: ماذا بتطوان؟.

وهو مؤلَّف في الـردِّ على أحد الخطبـاء في تطوان، تجـرَّأ على الشُّرفاء الصدّيقيين عموماً، وعلى الشيخين سيدي أحمد، وسيدي عبد الله ابن الصدِّيق خصوصاً.

طُبع هذا الكتاب سنة ١٣٨٣هـ على نفقة الصدّيقيين بتطوان، وفي آخره تذييل للسيد عبد العزيز بن الصدّيق، وقد وسم شيخنا بقوله:

«وبعد؛ فهذه كلمـة صغيرة موجَزة ذيَّلنـا بها كتاب الأخ الصالح

العلاَّمة الأثري الحريص على نشر السنّة الشريف سيدي عبد الله بن عبد القادر التليدي حفظه الله وأعانه الذي تعرَّض فيه لدرء فساد هذا المنكر الهالك، والواعظ المتهتّك، وقد كفى بما أتى فيه وشفى صدور قوم مؤمنين. اهـ.

وهنا يجدر بنا التنبيه على أمرٍ مهم قد يذهب البعض إلى اعتقاد نقيضه في المدرسة الصدّيقية.. هذا الأمر هو التمييز الضروري بين الفتاوى الفقهية، والتحقيقات العلمية: الحديثية والتاريخية، من جهة، والوصايا التربوية الأخلاقية من جهة أخرى.

فإنَّنا داخل مدرستنا الصدّيقية التليدية لا نعمل فيما يخصُّ الفقه والتحقيق العلمي والحديثي إلا بالدليل الثابت دون رأي الرجال، ولو كانوا مشايخنا في الطريق، وأساتذتنا في التربية.. وهذه الميزة لا تتناقض مع ما قام به شيخنا من الردِّ العنيف على من انتقد شيخيه سيدي أحمد وسيدي عبد الله ابني الصدّيق رحمهما الله تعالى، ذلك لأنّ الذي انتقد لم ينتقد الفكرة فحسب، بل مسَّ النقد شخص المنتقد وعقيدته وكرامته وحرمته، وفي ذلك بلا شك أثرٌ بالغ في نفوس المريدين المحبين لمشايخهم، وهو أيضاً خروج سافر عن منهج العلماء وأسلوب المناظرة الشرعية.

٣ ـ نشر الأعلام ببيان جهل من أنكر رؤية الله في المنام:

قال شيخنا في مقدّمة هذا الكتيّب النفيس:

«أما بعد: فقد ذكرت في كتابي (المبشّرات التليدية) المطبوع مع ترجمة شيخنا مولاي أحمد بن الصدّيق (ص١٣) أنَّ بعض أصحابنا[١]

---

(١) هو الشيخ الفاضل سيدي محمد عليلو الأنجري رحمه الله. تقدّمت ترجمته.

رأى الله في منامه. . . ، فأنكر عليَّ ذلك جماعة ممَّن ينتحلون العلم، وينتمون إلى الدين، وبالغوا في التطاول على عِرْضنا، وحكموا علينا بالكفر والردَّة، وسفَّهونا وهَجَوْنا، وحذَّروا منّا ومن كتابنا، فأعرضنا عنهم وعن سفههم ولغوهم ورفث كلامهم، وجعلنا الله تعالى وكيلاً علينا في مجازاتهم والانتقام منهم، ولكننا رأينا من أهم أفعال البرّ والخير، أن نرشد من تحيَّر من تلك الرؤيا، وحصلت له شكوك وخواطر فيها، لأنها من أهمّ المسائل العلمية، فحرَّرت الكلام عليها في هذه العجالة، مقْتصراً على أمّهات نصوص العلماء».

ويلاحظ أنّ هذه الفترة من حياة شيخنا كانت صعبة للغاية ومليئة بالمشاحنات والمناظرات بينه وبين طوائف من أهل العلم، وفي كلٍّ مرّة يُظهر الله آية لشيخنا تؤيّده وتُسانده على من يستبيح عرضه وحرمته.

كما أنَّ هذا النوع من الكتابات قد أعرض عنه شيخنا في الأخير، إذ يقول في آخر هذا الكتيّب: «فهذه عجالة كتبناها مستنكرين لذلك الذنب الفاضح والحادث المؤلم، وإجابة للملحّين من إخواننا الصادقين الغيورين، وإلا فالواجب تنزيه القلم عن الكتابة في مثل هذه السفاسف الساقطة»[1].

٤ ـ القول المُمَجَّد في الدفاع عن كرامة سيدنا أحمد:

طُبعت مع (تحفة القاري) المتقدم ذكره تحت رقم (٣) ضمن كتبه في التاريخ والتراجم.

كان سبب كتابة هذا المؤلَّف ما كان يشنُّه الداعية الواعظ والخطيب المرشد محمد الزمزمي غفر الله له من حرب هَوْجاء على أخيه سيِّدي أحمد رحمه الله ولو بعد وفاته. .

---

(١) ماذا بتطوان؟ ص١٦.

قال شيخنا عن حيثيات هذا الكتاب: «ومن أولئك الأفذاذ المصلحين، والرجال الأبرار المخلصين، الحاملين أعباء الوحي المحمدي في القرن الرابع عشر، الذين أُوتوا نصيباً كبيراً، وحظّاً عظيماً من هذه البلايا، وكثُرت لهم الأعادي، وتحامل عليهم اللئام والأوباش، شيخنا الإمام الحافظ سيدي أحمد بن الصدِّيق قدَّس الله روحه، فلطالما آذاه أهل عصره وشتموه، ونسبوه للخيانة، ولعنوه وبدَّعوه وضلّلوه وكفَّروه، ونفَوه من وطنه، وشهدوا عليه بأمور فظيعة ظلماً وعدواناً، وأغرى أهل طنجة به الحكومة الفرنسية، وكتبوا لوائح في الشهادة عليه، ورفع علماء تطوان مع الشاون الدعوى عليه لدى المحاكم الإسبانية، وأرادوا به الفتك مراراً فحفظه الله، غير أنّ عداوة الجميع قد انقطعت بانتقاله للرفيق الأعلى، ولم يبقَ قائماً بتحمّل هذا العبء والتكليف بهذه الأمانة إلا شقيقه وأخوه من أبيه وأمه الشيخ الواعظ والخطيب المرشد، فعداوته لمولانا الشيخ فاقت عداوة كلِّ عدو، وإذايته له تلاشت دونها إذاية كل مؤذٍ . . »[1].

طُبع هذا الكتاب مع سابقه على نفقة الإخوان الصدّيقيين بتطوان.

لكن شيخنا حفظه الله ارتأى أن لا يدخل ثانية في صراع مع مخالفيه أو خصومه وكتابة ردود، وإنْ كانت حاملةً لبعض المنافع والفوائد، إلاّ أنَّ آثارها جدُّ سيئة بين الأوساط العلمية خصوصاً بين الأتباع والمريدين.

فالأتباع غالباً ما يُجاوزون الحدّ الذي يريد صاحب الرأي المتبوع أن يقفوا عنده، فيورث لهم فهماً معوجّاً لاختياراته الفقهية والعقدية بين جمهور المسلمين.

---

(١) القول الممجد، ص٢٢.

٥ ـ أهل السنّة والشيعة بين الاعتدال والغلوّ:

طُبع بمطبعة اسبراطيل بطنجة، سنة ٢٠٠١م.

وهو كتاب في تحذير المسلمين من عقائد الروافض المغالين في محبّة آل البيت إلى حدّ القول بالعصمة.

كتبه شيخنا مُخْتَصَراً ليفيد به جمهور أهل السنّة الذين صاروا مخدوعين يتابعون برامج التلفزة الشيعية، بل ويشترون كتب الشيعة الرافضة، فيتأثّرون بأسلوبهم الساحر المشعوذ الداعي إلى اعتبار الصحابة قد ارتدُّوا بعد ممات النبيِّ ﷺ إلا (١٦) صحابياً فقط، وأنَّ القرآنَ قد حُرِّف وغُيِّر وزيد فيه ونقص منه، وأنّ أهل البيت المأمور باتباعهم مَنْ كان من ذرّيّة الإمام الحسين خاصة في شروط تعسفية متهالكة، إلى آخر هذه الترهات التي أصبحت تدبُّ شيئاً فشيئاً في أُسر الجهالة والفقر، حتى ظهر التشيُّع الرافض في طنجة وتطوان والدار البيضاء ومراكش وفاس وغيرها من مدن المغرب.

أما قول شيخنا في الزيدية، وأنهم يرون الإمام علياً هو أولى بالخلافة، وأنّ الإمامة لا تخرج عن أولاد زيد بن علي بن الحسين[(١)]، فلا أدري عن أيِّ مصدر كتب شيخنا هذا التحرير.

ومعلومٌ عند علماء الكلام أنّ الزيدية لا يمنعون أن يكون الإمام من غير ولد الإمام زيد، ومن ثم كان من أئمتهم الإمام علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن السبط، والإمام محمد بن عبد الله الكامل بن الحسن بن الحسن السبط، وإخوانه الإمام إبراهيم والإمام يحيى والإمام إدريس فاتح المغرب في آخرين.

---

(١) أهل السنّة والشيعة، ص١٦.

ومن فوائد هذا الكتاب: الجدول المُثبُت في آخره الذي يوضح عقيدة المسلمين من أهل السنة والجماعة، وما عارضها ونـاقضها من عقيدة الروافض، ليميز اللهُ الخبيث من الطيّب، ويجعل الخبيث بعضه على بعض، فيركمه جميعاً، فيجعله في جهنّم، وساءت لأعداء الصحابة وأعلام الأمة مصيراً.

* * *

سابعاً:

من مخطوطات شيخنا حفظه الله تعالى

١ ـ إتحاف المسلم بزوائد أبي عيسى الترمذي على البخاري ومسلم.

وهو المشروع الحديثي الثاني بعد (تهذيب سنن الترمذي) الذي سيظهر من خلاله شيخنا متخصِّصاً في علم الزوائد في هذا المؤلَّف الهام.

وما زال المخطوط ينتظر فرصته للطبع كغيره من نفائس المؤلفات التليدية.

يقول شيخنا حفظه الله في مقدمة هذا المؤلَّف:

«أما بعد: فمن الأمّهات الإسلامية العظيمة في السنّة المحمدية كتاب الجامع لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي المتوفى عام تسع وسبعين ومئتين بترمذ، فإنه لم يؤلّف في الإسلام مثله في أسلوبه وجمعه لشَتات العلوم. وقد وفّقني الله تعالى لخدمته فقرأته مرات، ثم هذّبته، وخرّجت أحاديثه، وتتبّعتُ الكلام عليها حديثاً حديثاً، وتمَّ تحريراً في الثاني عشر من جمادى الآخرة عام خمسة وتسعين وثلاثمئة وألف، وكانت بدايته عام خمسة وثمانين وثلاثمئة وألف».

ثم قال: «ثم ظهر لي إفراد زياداته على البخاري ومسلم، فاستخرجتها مرة ثانية، وزدتُ فيها تحقيقات على التهذيب، فتمَّ بحمد الله تعالى وعونه وتوفيقه في رابع عشري ربيع الأول الأبرك عام خمسة وأربعمئة وألف، وكانت بدايته أوائل صفر من عام اثنين وأربعمئة وألف».

وبخصوص زوائد الترمذي على الصحيحين قال:

«وعدد هذه الزوائد نحو من ألفين ومئة ونيف وعشرين، وفيها المتواتر والصحيح والحسن بأقسامها، وفيها الضعيف بأغلب أنواعه حتى الواهي والموضوع. فالصحيح منها نحو من ألف وستمئة وإحدى وعشرين حديثاً، أما الضعيف وهو الباقي فنحو من خمسمئة حديث، أما الموضوع المدرج في كتب الموضوعات فأكثر من عشرين حديثاً بعضها ظاهرة الوضع لا تخفى على طالب هذا العلم».

والمخطوط المبارك جاء في أربعمئة وسبع وخمسين صفحة.

وفي آخر الكتاب وقبل الفهرسة العامة للكتب والأبواب نجد فهرساً لقواعد وفوائد حديثيّة تتعلّق بهذه الزوائد.

وهي من أهم ما ألّف شيخنا في علم الحديث، تدلّ على جدارته وباعه الطويل في تفاصيل هذا العلم الدقيقة.

٢ ـ الرائد بمفتاح أحاديث الزوائد:

في آخر نسخة المخطوطة السابقة نجد كتاباً آخر من الكتب الحديثية كثمرة دراسة شيخنا لسنن الترمذي طوال الثمرة الثانية بعد ثمرة الزوائد على الصحيحين.

وهو خاصّ في موضوع الأطراف التي اعتنى بها كل المحدّثين وألّفوا فيا أسفاراً طويلة وممتعة. يقول شيخنا في مقدمة كتابه:

«أما بعد، فمن الموضوعات التي اعتنى بها المحدّثون، وكتبوا فيها المؤلّفات الممتعة أطراف الأحاديث التي جعلوها كشفاً عن الأحاديث وبيان مظانّها ومواضعها من كتب السنّة المشرّفة. وهي من أهم الأسباب المعينة على البحث والتأليف إذ هي توفّر على الباحث وقتاً كبيراً،

فيستطيع معها أن يعثر على الحديث الذي يريده في وقت قصير جداً».

وبخصوص منهجه في هذا الكتاب يقول شيخنا حفظه الله:

«أما ما كان من الأفعال مما لا يدخل في الحروف فرتّبته على مسانيد الصحابة، وهم مرتَّبون على الحروف كذلك».

وقال أيضاً: «وقسمته إلى أربعة أقسام: الأول: من الإيمان إلى آخر الدعوات، الثاني: من الطهارة إلى آخر الجنائز، الثالث: من النكاح إلى آخر الرؤيا، الرابع: إلى آخر المناقب.

يسَّر الله طبع هذين العملين الجليلين بفضله ومنِّه، آمين.

٣ ـ البراهين السامية في عقيدة الفرقة الناجية.

ما زال هذا المخطوط راقداً في خزانة شيخنا النفيسة، وإن كان من أول ما كتبه الشيخ في حياة سيدي أحمد بن الصدِّيق، وكان هذا الكتاب ثمرة مطالعة شيخنا لعدد من المؤلفات في العقيدة منها كتاب (التوحيد) للإمام ابن خزيمة، و(اجتماع الجيوش الإسلامية) لابن القيم، وكتاب (العلو للعلي الغفار) للإمام الذهبي، وعقيدة ابن أبي زيد القيرواني، في كتب أخرى.

يسَّر الله طبعه بفضله وكرمه آمين.

مخطوطات أخرى:

٤ ـ الاحتساب على مَنْ خالف مِنَ المالكية الأصحاب، مجلد.

من مخطوطات شيخنا القديمة. . إلا أنه غير تام.

٥ ـ الرحمة المنشورة بشرح قصيدة مدح الطائفة المنصورة.

٦ ـ اقتفاء السبيل بتحريم التقليد ووجوب العمل بالدليل.

مازالت راقدة في خزانة شيخنا حفظه الله، وهي من الكتب التي ألّفها قديماً.

٧ ـ البغية في فضيلة العزلة.

٨ ـ إرشاد الراغبين.

٩ ـ القول الفريد.

١٠ ـ الفتوحات الربّانية باختصار الشمائل المحمديّة.

هذا من الكتب التي ألّفها شيخنا قديماً، ولم يرد طبعها بعد أن ظهر اختصار للشيخ ناصر الدين الألباني للشمائل المحمدية.. والمخطوط ما زال راقداً في الخزانة التليدية.

١١ ـ الإنذار للمتشبّه بالكفار.

١٢ ـ فتح الجبار في الردّ على من أباح ملابس الكفار.

من المؤلفات القديمة التي لم ترَ نور الطباعة بعد.

١٣ ـ شرح البيقونية في مصطلح الحديث.

مساهمة من شيخنا في مصطلح الحديث الذي تمرّن كثيراً على تطبيقاته. والرسالة ما زالت مخطوطة.

١٤ ـ جزء في الوضَّاعين والكذّابين.

أصل هذا الكتاب هو (المغير) للحافظ سيدي أحمد رحمه الله. ما زال مخطوطاً.

١٥ ـ تخريج أحاديث شرح زرُّوق على الرسالة، لم يتم.

١٦ ـ الجواهر المكنونة بما في الموطأ من الأحاديث المتصلة

المرفوعة، لم يتم. ومازال مخطوطاً.

١٧ ـ درء النقم بشرح لثم النعم بنظم الحكم لشيخه سيدي أحمد بن الصدِّيق، لم يتم. وما زال مخطوطاً في خزانة شيخنا حفظه الله.

١٨ ـ مفتاح لأحاديث المعجم الصغير للطبراني.

١٩ ـ الطرح والرفض لمن لم يرَ استحباب رفع اليدين في الصلاة عند كل رفع وخفض.

وهو من الرسائل المهمة التي ألّفها في سنة من السنن النبوية المهجورة اليوم.

والرسالة ما زالت راقدة في الخزانة التليدية.

٢٠ ـ القنوت في السنّة.

من الرسائل التليدية المفيدة الجاهزة للطباعة، وقد وعدني الشيخ بإلقاء نظرة من جديد على المخطوط ليهيِّئه للطبع في القريب العاجل إن شاء الله تعالى.

٢١ ـ أحكام الجمعة وأسرارها.

٢٢ ـ جزء في فضائل القرآن.

٢٣ ـ تفريج الكربة بتخريج أحاديث شرح البردة لابن عجيبة.

وهو مشروع بدأت في تنضيده بكتابة شرح البردة والتخريج على الكومبيوتر من نسختين متوفرتين لديَّ، الأولى وجدتها عند شيخنا، والثانية أطلعني عليها الشيخ الوقور سيدي ياسين الوزاني حفظه الله تعالى.

٢٤ ـ أحاديث الشفاعة وأنواعها.

٢٥ ـ مشاهير رواة الصحابة.

٢٦ ـ المبشِّرات المنامية عبر العصور.

٢٧ ـ شفاء العليل بملاحظات حول مختصر خليل.

٢٨ ـ الفتاوى المنبرية، نصب الموائد الجزء الثالث. .

ويلاحَظ من خلال هذا الجرد أنّ موضوعات كتابة الشيخ مختلفة؛ فمن حديث إلى تفسير إلى سيرة إلى تزكية وأخلاق. . وقد جاء تصديق ذلك في رؤيا لبعض أصحابه رأى كأن شيخنا حفظه الله في موضع وبين يديه جملة كتب، وله أيدٍ كثيرة، وهو يكتب بها، فصار ينظر فيرى بعضها صفراء، وبعضها خضراء، وأخرى زرقاء وهكذا، وهي إشارة إلى تعدُّد كتاباته في شتى الموضوعات الدينية[1].

* * *

---

(١) انظر المنح الإلـهية، ص٢٤.

الخاتمة

وفي الختام لا ننسى الجهود التي تبذلها دور الطباعة والنشر والقائمين عليها كالسيد أحمد قصيباتي حفظه الله صاحب دار ابن حزم، والسيد رمزي دمشقية[1] رحمه الله صاحب دار البشائر الإسلامية، ودار القلم بدمشق التي بدأت بطباعة بعض كتب الشيخ. بالإضافة إلى سفير دور النشر الشيخ المبجَّل الجليل السيد مَجْد مكي حفظه الله الذي بذل جهوداً كبيرةً في إخراج المخطوطات التليدية في زيٍّ حَسَنٍ ومبارك ميمون.

على أن دور الطباعة في المغرب ما زالت في تأخُّر متفاقم عن ركب الطباعة الحديثة المتطوّرة والمتكلّفة بكل المصاريف والنفقات مع إخراج في غاية من الدقة والجمال.

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله أعزُّ وأجلُّ وأكبرُ مما أخاف وأحذر أو أمدح وأثني وأطري، ولا نزكّي على الله أحداً، ولا نقول إلا بما شهدت به قلوبنا وأعيننا وأسماعنا ومشاعرنا.

فالحمد لله أولاً وآخراً، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد

---

(١) تأثر شيخنا كثيراً لموت صديقه الأستاذ رمزي دمشقية الذي بذل مع الشيخ جهداً كبيراً لإصدار كتبه، وطبعها في أحلى حلّة وأجمل إخراج، توفي ٢٥ شعبان عام ١٤٢٣هـ رحمه الله تعالى.

الفاتح لما أُغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطه المستقيم، وعلى آله الأطهار، وصحابته الأبرار، والتابعين لهم بإحسان وحبٍّ وانتصار.

* * *

الفهـــرس

الفصل الثاني
تعريف بمؤلفاته

* * *